قصص

محمد اشويكة

الگرَاطِيط

براءات المتوسط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهًة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Al-Gratit *by* "Mohammed Chouika"
Copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: محمّد اشويكة / عنوان الكتاب: الكَرَاطِيطُ
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: Shutterstock / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-32-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

محمد اشويكة

الگرَاطِيط

المتوسط

الجزء الأوّل

-١-

الجوّ مُكفهرّ. ضباب كثيف داكن اللون. ظلام شديد، لا يكسر حلكته إلا ضوء البرق الذي يجعل الناس يتأهّبون لاستقبال سلسلة من دوي الرعد الشبيه بالمفرقعات التي تخترق جدار الصوت.

كلّ شيء يُؤذِنُ بأن واقعة رهيبة على وشك الوقوع.

حالة استثناء تُعلنها الطبيعة على القوم.

يرتجف الناس واهنين .. فالطبيعة في مثل هذه الظروف تُضَاعِفُ أهوالَ ضعف الإنسان، وتُكرِّس دونيّته.

رغم تنامي الرعب، ينتظر الناسُ المطرَ بعد توالي السنوات العجاف، وانتشار المجاعات والجوائح وظهور المُبَرْغِزِين .. ولو وقعت السماء على رؤوسهم!

-٢-

يتراءى من بعيد، رجل يقاوم البرد والريح، يظهر أثنا وميض البرق، ويختفي بعده وكأنّ الرعد يسحقه، ويُعيد البرق إحياءه!

كلّ ما يرتديه يُوهِم الناظر بأنه من أهل القبور .. أو أنه خرج للتّوّ من أسطورة يونانية بعد أن دخل في صراع أبديّ ضدّ الآلهة، انتصر أو انهزم .. وعاد من أجل البشرية!

حَدُّ جلبابه يصلُ فوق ركبَتَيْه. ذراعاه عاريتان. غالب الظّنّ ألا شيء آخر تحت الجلباب.

-٣-

يُحكى أن جدَّه قد أُعجب أيّما إعجاب بسروال روميّ، كان يرتديه أخوه القاطن بالمدينة. كان يقضي معهم بعض الوقت، ويتفقّد أراضيه. يتتبّع الجَدّ طريقة ارتداء أخيه لسرواله العجيب خلسة. كان يجمعه بحزام جلديّ أنيق. يغطّي السروال ما تحت الحزام إلى الحدود العليا للقَدَمَيْن(!). يمرّ رأس الحزام عبر قطعة حديدية صقيلة. يصل إلى قياس، يتيح لمرتدي الحزام عدم سقوط السروال. يُمَرِّرُ قطعة تشبه المسمار من اليمين نحو اليسار داخل قطعة الحديد. ينغلق الحزام بإحكام.

في فجر اليوم الموالي، انسلّ الجَدّ إلى بيت أخيه. لبس السروال. أحكم وثاق الحزام. ركب بغله. اتّجه إلى بستانه. اشتغل بجدّ، إلى أن أدركه واجب إفراغ البطن. أراد فَتْحَ إِبْزِيم الحزام، فلم يستطع لذلك سبيلاً. حاول وحاول وحاول .. حاول مرّات لا تُعدّ. ركض بِطَاقَةٍ تفوق سنّه عائداً إلى المنزل. أدركَهُ الواجبُ.

عاد من منتصف الطريق إلى بستانه. شظايا الغائط تتساقط وراءه عبر طرفي السروال. بقعة مائية مُلوّنة مرسومة على مؤخّرته. يلتفت يميناً ويساراً، كي لا يراه أحد.

وصل إلى البستان، والروائح تتصاعد إلى خياشيمه. أخذ المنجل،

وأدخله بعنف ما بين لحمه والسروال، وقَطعَ الحزام حتّى كاد يُجهز على بعض من أعضائه المتدلّية. دفن السروال وملحقاته، وكأنه دفن سرّاً إلى الأبد!

منذ ذلك الحين، لم يعد يلبس إلا الملابس الگرطيطة (القصيرة) دون سراويل طبعاً. زهد في السراويل. كان يحصد وحيداً، ولا يضطرّ إلى قَطْع عمله من أجل قضاء حاجته!

طريقة مُبتكَرَة في تسميد الحقول بناء على المدخرات العضوية الذاتية (التسميد الذاتي)!

-٤-

خرج منذ الفجر صحبة ما بقي في حوزته من بهائم، كان ينوي ألا يعود قطّ إلى نقطة الانطلاق. غمرتْهُ كومة أشواك من سِدْر، كان أهل القرية يصنعون به زرائب للنعاج، كي تبيتَ فيها، وتحميها من الذئاب الجائعة والضّالّة.

استجمع قواه، وقام ناظراً نحو السماء التي بدأتْ تُرسِل أولى زخّات المطر بشحّ جليّ. تشابكتْ خيوط ثيابه بأطراف الشوك. أنسَتْهُ رائحة التراب، المنتشرة عبر الرياح، وخز الأشواك، وانشرحتْ أسارير وجهه، وكأنه حَمَلٌ صغير يذهب بفمه صوب ضرع ذئب غير مميّز بينه وبين ضرع أمّه!

استحضر حلم الاستقرار والمكوث .. والزواج ومعانقة المرأة عوض البهائم .. وتصوّر نفسه يحمل بين ذراعَيْه رضيعاً، حَارَ في اختيار اسمه!

أنعشَهُ حُلمه هذا، وأنساه مأساة الموقف ...

انتبه إلى ورطته، فأسرع يجرُّ ما علق بثيابه. هشَّ على أغنامه مصارعاً الزوبعة في حركة معاكسة، دافعاً الأغنام المتكدّسة الخائفة نحو القرية ... أكْثَرَ من الالتفات، توالتْ حركاته وتسارعتْ .. تتساقط الأمطار فوق رأسه الأصلع كما تتساقط فوق بطّيخة طازجة!

ارتفع ضغط الدم في شرايينه .. أراد أن يَشْتُمَ ذَاكِراً واحدة من بين ما يوجد بين أفخاذ الرجال .. فتلمّظ ريقه، وسَكَتَ.

-٥-

يُلقّبه الناس منذ طفولته بـ "الزِّبطي"، ولم يكن يدرك معنى الكلمة الرّنّانة آنذاك إلا بعد أن اكتشف من خلال الحُمْلاَن ثنائية ما بين الفخذَيْن، وتأكّد لمساً أن ما يشبه اللَّوزَتَيْن يحويهما الجِلْد، وتكبران شيئاً فشيئاً، إلى أن تصبحا رمزاً للباه والجاه دفعة واحدة لدى الرجل .. بل تُقاس رجولة الرجل بفُولَتَيْهِ!

حمل الزِّبطي كلام الناس على محمل الجدّ، وجرّب قوة أساطينه في أوّل شاة، لم تضع حملها الأوّل، ولم يَمسسها خروف قبله .. فتأكّد عبر قوّة الدفع من أن نقصان عدد حبّات مِرْوَد الفول لا تعني عَدَمَهُ.

سقط في صباح يوم باكر من فوق السِّدْرَة المحاذية للقرية لمّا انسلّ باحثاً عن النَّبْق. زاغتْ رجلُه عن موضعها، فسقط، وبَعَجَ عودٌ طائشٌ حجرَهُ، فانغرزتْ خُصْيَتُهُ في العود، كما ينغرز السَّفُّوْدُ في كُلْيَة الخروف تحضيراً لشَيِّهَا.

دخل جماعةَ الزِّبطِيِّيْن منذ الصِّغَر .. فلم تنقطع صلته بالرگوبة(*) منذ ذلك الحين.

---

*) اسم يُطلق على السِّدْرَة الضخمة، والمرجّح أنها تعود إلى المَرْقَبة، وهي المَنْظَرةُ في رأس جبل أو حِصْن، وجَمْعه مَراقِبُ. وقال أبو عمرو: المَراقِبُ: ما ارتَفَعَ من الأرض (لسان العرب) .. إلا أنّ "رگُوبتنا" هنا بمثابة بُرج المراقبة بالقرية.

-٦-

كانت تنتصب على الجانب الأيسر من القرية رگوبةٌ، تشبه مثيلاتها في صحاري سيبرا نيڤادا، الواردة شعابها في أفلام الويستيرن المجيدة بفنّها، المقيتة بإيديولوجيّتها ... يتسلّقها الولد وسط النهار، كما يتسلّق بطل فيلم "AMARCORD" للعظيم فيليني، شجرة ملساء مماثلة، إذ يصرخ بأعلى صوته من عليائها: "أريد امرأة .. أريد امرأة".

لا يريد الولدُ امرأةً، ولكنه يرغب في أن يسترق لُحَيْظَاتِ متعةٍ جميلةً، يرصدها كما يرصد نَسْرٌ في السماء طريدَتَهُ .. يرى الفتاة حليمة تتبوّل .. وما أدراكَ ما بول حليمة؟! كانت ترمي سروالها جانباً، وتضع خُفَّيْها جانباً، وتضع آنية الماء جانباً، وتهزّ ثيابها فوق رأسها .. ويبدأ الضُّرَاطُ والفُسَاء والبَوْل .. أصوات ورياح وروائح وأهواء ... والرجل فوق الشجرة يتوهّم الأصوات، يتشمّم الروائح، ويرى البياض والسواد والحمرة ... كان يرى شيئاً ما ينزل منها، لولبيّ الشكل، يشبه الثعبان الأسود .. فيقول مخاطباً نفسه:

- وا انْزَلْ ألَهْبِيلْ .. وَرَانِي خَايَفْ عْلِيكْ ...

-٧-

تَحَمَّلَ الابنُ أعباء كثيرة .. فراقَ الأب .. حزنَ الأمّ .. أقوالَ الناس .. سنواتِ الجفاف. لم ينعمْ بطفولته، ولا مراهقته. منذ سنواته الأولى، وهو يشتغل لدى إقطاعيّي البلد الذين لم ينلْ منهم الجفاف شيئاً، ولم يرحموا طفولته. غنم بعض الأغنام بعد أن رعى قطيع أحد الأغنياء مقابل حصوله على خُمُسِ الخِرَافِ. مَنَحَهُ صاحبُ القطيع الذي يتجاوز مائتَي شاة وخروف، ما أراد من خراف مريضة، وأخرى ولدت قبل الأوان، إلا أن معايشته للقطيع أكسبتْهُ خبرة المحافظة عليها. وهو اليوم واحد من ملاك البهائم رغم أن مَنْ يثقُ في البهائم كَمَنْ يثقُ في الجوائح!

يشتغل صباحاً في حقول أرباب الأراضي من ذوي الكروش البطِّيخِيَّة (فصيلة نادرة هنا!)، ويُخصِّص نصف اليوم الآخر للعناية بوالدته وقطيعه.

يعدّ ذلك استسلاماً قَدَرياً محتوماً!

-٨-

ظنّ أن القسمة ستكون حسابيا صارمة طبقاً لشروط الاتّفاق الذي أبرمه مع مالك القطيع منذ سنة خَلَتْ .. إذ سيحصل على الخُمُس من الخرفان.

ظفر بأربعة عشر رأساً بعد أن استفاق مذعوراً في صباح أحد الأيّام على ثغاء الخِراف الذي ملأ فضاء الزريبة التي ينام جنبها ككلب حراسة. اكتشف بحاسّة الراعي العارف بدقائق رعيّته، الغياب المهول للخراف كلّها التي حافظ عليها كما يحافظ الكلب على جِرَاه.

لاحظ آثار الشاحنة أمام الباب الخلفي المفتوح على منزل المالك، ففطن إلى اقتياد القطيع إلى السوق.

ليست هناك لحظة أشقى من إدراك الإنسان لعجزه التّامّ لحظة الانتفاض!

غطّى رأسه بِقُبِّ الجلباب ناسياً قارورة اللبن التي وضعها به دون أن يُحكم إغلاقها. سَالَ السَّائِل الأبيض فوق رأسه، انمحى كما تنجلي ألوان فنّان تشكيلي، حاول أن يرسم لوحة تجريدية تحت وقع الأمطار!

جلباب يُذكّره بمأساة مغادرة زوج أمّه لها، وتزوُّجه من امرأة، تنتمي إلى قبيلة مجهولة قصدها دون أن يُخبِر أحداً. ظلّتْ تنتظره وترقّب أخباره، إلى أن مَلَّت تلك الحكايات الملفّقة التي ينسجها الشامتون. أضناها الانتظار اليائس. فَقَدَتْ بصرها من كثرة البكاء والكمد والفراق.

-٩-

كان مالك القطيع يشحنه في مؤخّرة الشاحنة التي تحمل الخراف أو العجول في أوقات متفرّقة من السنة .. يعدُّ البهيمةَ التي يريد أن تُساق إلى السوق، يقدِّم لها الماءَ والعَلَفَ، يحرص على ألا تنام متمرّغة في بولها وفضلاتها، يمسح العجول إذا عَلِقَ بها شيء ما، كما يمسح ماسح الأحذية أحذيةَ زبائنه، إلى درجة تصبح فيها الثيران أنظف منه .. إن ثقافة الواجهة جزء من لعبة السوق والتسوُّق: "زَوِّقْ تْبِيعْ".

كانت ليلة جَلْب المواشي ليلة مشؤومة، يكرهها كما يكره ليلة وفاة أبيه وانقطاعه عن الدراسة .. ليلة تبدأ من الفجر، ولا تنتهي إلا في ليل اليوم المقبل .. فمن جريه اليومي وراء القطيع الكبير .. يواصل النهار بالليل في تحضير البهائم ...

تُشْحَنُ البهائم باكراً .. يجب أن يظلّ حريصاً على ألا تتعاركَ، كي لا تُصاب بأذى ...

ليلة باردة من ليالي شهر يناير المقمرة. الشاحنة تسير بسرعة. كان يتأمّل منظر القمر والنجوم. رأسه مرفوع نحو السماء متتبّعاً حركات النجوم السَّيَّارة المضيئة .. سَحَرَهُ المنظر، وجَذَبَهُ. داخ فَغَفَا .. فإذا بماء دافئ ينزل فوق رأسه كصنبور ساخن في شقّة مفروشة .. استيقظ مفزوعاً، فلطم بقُنَّة

رأسه أيرُ العجل الذي كاد يطير من الشاحنة، كما طارت "مرسيديس" في رواية "مائة عام من العزلة". رَفَسَهُ العجلُ الضخم كما ترفس البهائمُ النملَ.

توقّفت الشاحنة، فهبط مالك القطيع يصيح قائلاً:

- أين أنتَ، أيّها البهيمة؟

أجابه من تحت البهائم:

- كدتُ أموتُ .. دهستْني العجول ...

ردّ عليه ولسانه كاد ينفلت من فمه:

- وما الذي أبقاكَ حياً؟ .. كلب، بسبعة أرواح! .. آه، لو وجدتُ عجلاً مجروحاً!

-١٠-

ضوء البرق مُسْتَمِرٌّ وَمِيضُهُ .. صوتُ الرعد يتزايد .. ماء المطر ينهمر ...

أصوات عذراء حَدَّ التآمر ...

الرجل وقطيعه يتقدّمان نحو القرية المترامية في سفح الجبل الأبيض. تبادرتْ إلى ذهنه حكايات إصابة الصواعق البرقية والرعدية للعديد من الناس البرقية والرعدية، حاصرتْهُ مبالغات الناس في تضخيم أهوالها، ورَبْط كلّ مَنْ يسوقه حظّه العاثر إليها بالنحس! كانت آثار الثقوب والندوب التي رآها على جسد ابن الجيران في صغره مُحَفِّزاً على الإكثار من الصلاة على النبي وذِكْر الله والاستغفار، والاستعاذة من الشيطان كلّما دَوَّى صوت الرعد.

لا تتحقّق لحظات الصفاء إلا أثناء الأزمات ولحظات الخوف والإحباط الشديدة!

وها هي ذي تتوافر دفعة واحدة!

-١١-

يتعالى دعاء الأمّ الضريرة المُقعَدَة الوحيدة الملتاعة على وحيدها، وصور حادثة الصاعقة نفسها تتقاطع في مخيّلتها .. التي لم تكن تتوانى لحظة في تذكير ابنها بها، كلّما هَمَّ بالخروج لحظة سماعها دَوِيّ الرعد رغم أثَرِ الجفاف البليغ في حياة الناس.

يخاف الناس من الموت المَجَّانيّ، موت الحوادث، ويتحمّلون قَهْر الدنيا كلّه مقابل الفوز بدقيقة حياة واحدة! كم نخاف الخوف!

يَقْطَعُ البرق، وَصِيفُ الرعد الطبيعي وَأَرْنَبُ سباقه، ذبذبات مذياع "إلكترا" الياباني الصامد، وسيلة الارتباط الوحيد بالعالم .. الجهاز الأوحد الذي يمكن أن ينتبه إليه كلّ دَاخِلٍ إلى بيت العجوز.

-١٢-

علَّق الولدُ المذياعَ في مكان بعيد عن الأمّ، ونسي إغلاقه قبل الخروج. يخاف أن تُعيد أمّه إسقاطَه مرّة ثانية بعد أن نجا من المحاولة الأولى التي أعاد الابنُ خلالها بعضَ أسلاكه إلى الداخل، كما يعيد الجرّاح أحشاء رجل مريض بعد قَطْع ما يلزم قَطْعه.

لا أحد يعرف ما ينبعث من "إلكترا"، باستثناء بعض الأغاني الشعبية أو أغاني منطقة "زَيَانْ" رغم عدم إتقان كلَيْهما للغتها. إن شيئاً سِحْرِيّاً يجعل الناس يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بتلك الأغاني! ما كان إلكترا يجود بشيء يفكّ عنهم عزلتَهم؛ غربتهم، ما عدا تلك الأغاني! غرباء اللغة هم!

بعد انصراف الابن، تأتي النساء من حين لآخر إلى الأمّ. يتمايلنَ على الإيقاعات بشكل عجيب مُتَيَقِّنَاتٍ من أن العجوز لا تراهنّ. في بعض الأحيان، تصلها دوائر الهواء التي تُثيرها ثياب، حركات بعض الأجساد المثلوية، فتقول:

يا له من غَرْبِيٍّ (نسيم عليل قادم من الغرب)!

تتنهّد مسترجعةً أيّامها الخوالي.

-١٣-

يُذَكِّرُهَا "إلكترا" بزوجها، والد ابنها الوحيد، الذي كان أوّل مَن اقتنى المذياعَ في هذه البقعة من البسيطة .. وأوّل مَن اشترى "عَوْدْ الرِّيحْ" (الدرّاجة الهوائية) .. وأوّل مَن امتلك حصاناً مجهّزاً بكلّ ما يلزم للتّبُورِيْدَة .. وأوّل مَنْ كان يقف فوق ظهره أثناء قيامه بألعاب الفروسية في مِضْمَارٍ استعراضيّ، إلى أن صار له أتباع، وأصبح اسمه على كلّ لسان ...

ارتبط "إلكترا" بحكايات عجيبة وطريفة. كانت حكاية اختراعه ملفوفة بغموض كبير لدى سكّان هذا المكان القَصِيّ. تخرج الأصوات من الصندوق العجيب، فيُصاب الناس بالذهول .. منهم مَن ينصرف لاعناً الشيطان .. ومنهم مَنْ يرفع رأسه صوب السماء مستغفراً الله خائفاً من قُرب الساعة وعودة الدّجّال .. ومنهم مَن عَدَّ صاحبه ساحراً يتوضّأ ببوله، كي يَخْدُمَهُ الجنّ، فَقَاطَعَهُ بعد أن لَعَنَهُ .. ومنهم مَنْ أصبح مُدمِناً على سماع ما ينبعث منه .. بل كثيراً ما انساق الناس راقصين على دقّات "الطعريجة" و"البندير" وصوت "المَصْرَان" (يعني المعي، ويُستعمل كناية على الكمان) المنبعثة من مكبّر صوته .. يبدأ الجرّ(*) والدّقّ. يرتفع الغبار. تتدافع الأجساد التي لا يفضّ جمعَهَا إلا انقطاع صوت "إلكترا".

*) يُسمّى العزف على الكمان في الأُغنيّة الشعبية، وخاصّة فنّ "العيطة" باسم "الجرّة".

-١٤-

صوتُ بهائم يخترق ساحة المنزل المغمور بالماء، صوت اصطدام أرجل سريعة الخطى بالماء، ارتعاش، أنين، اصطكاك أسنان، ثغاء وصياح، رياح هوجاء شبيهة بتلك التي تهبّ في أفلام الويسترن، لا تنقصها إلا موسيقى "Ennio Morricone"...

اختلطت الأصوات على العجوز رغم أنها لا تُتقن إلا فنَّ تمييز الأصوات، وكأنها مازج صوت "Mixeur de son" يشتغل باستوديوهات بوليود. تعرف كلّ شيء من خلال الذبذبات، السكنات والحركات، تعرف عالمها، وتُنظّمه، كما ينظّم نحّات أشلاءً منحوتةً، غلبها الزمان!

إن الدماغ يُبرمج حركاتنا كلَّها، يُخزِّن الصور كلَّها التي سبق وأن رأيناها، الأصوات كلَّها التي سمعناها ...

تتحرّك العجوز في البيت دون مُعين وفقاً لما خزّنتْهُ من صور قبل فقدان البصر. تكنس، تطبخ، تعجن، تُنظّف الأواني والثياب، تغزل وتنسج، بل إنها خبيرة في صناعة الزَّرَابي والجلابيب.

لكنْ، لا يهمّها الآن إلا صوت واحد .. استجمعتْ قواها، وأمسكتْ بيد ابنها وكأنها تراه!

- فَيْنْ بْقَيْتِ أَوْلَيْدِي؟ يَاكْ لاَ بَاسْ؟ زِيدْ زِيدْ ...

تشعر الأمّ بغبطة ممزوجة بالأسى وهي تتحسّس رأس ابنها، كما كانت تتلمّسه وهو رضيع.

نصغر في أعين أمّهاتنا مهما كبرنا .. وتكبر في أعيننا أمّهاتنا بعد الموت!

أدركت الرعشة التي تهزّ جسد ابنها. أسرعتْ نحو الموقد، لتحمل النار. عادتْ دون أن تنزلقَ محافظة على توازنها، وعلى النار.

مدَّت المجمرَ له بالصّحّة والعافية .. مؤكّدة نيّتها نَسْج جلباب جديد، يُمْكِنُ أن يتباهى به بين أقرانه من أبناء القرية .. فصيفُ هذه السنة سيكون مليئاً بالحفلات.

-١٥-

تستحضر أمُّه سيرةَ ابن أخيه ...

... بعد موت أمّه مذ كان رضيعاً، تلقّفتْهُ عجائز القبيلة، ولمّا كبر ظلّ يجالسهنّ، تجده يقوم بجُلّ أعمالهنّ، تعلَّمَ العجين والطبخ والتصبين، رعاية الدجاج، الغزل والنسيج والحياكة، حفظ أغانيهنّ .. وحين بلغ المراهقة، نَفَثَ قذائفه وراء مؤخّرة مربّيته التي كانت لا تجعله يفارقها بعد أن مات زوجها عنها، إلى درجة أصبح يُنادى بـ "ولد لطيفة" .. انتقل إلى الجامعة. اكتشفتْ جمالَهُ إحدى مدرّساته. صارت تأخذه معها. اكتشف من خلالها مجموعة نساء مطلّقات في سنّ الخمسين فما فوق. تعوّد التناوب عليهنّ، أو اعتدنَ التناوب عليه .. أخذ إجازته في الأدب العربي أو اللغة العربية أو .. فتوسّطت إحداهنّ لصالحه بفِعْل علاقاتها السرطانية الممتدّة. دخل مركز تكوين المعلّمين. نجح متفوّقاً، تماماً كما حرصتْ على أن يكون فوقها حين تريده. ساعدنَهُ أيضاً على أن يحظى بتعيين تفضيلي، يُبقيه بالقرب منهنّ .. اكترى شقّة غُلامية صغيرة "Garçonnière". بات ينظّم مواعيده معهنّ سواء بالذهاب إليهنّ أو الإتيان إليه: لا فرق!

كانت شقّته مُتْحَفَاً للهدايا والمسروقات. كان خفيف اليد، إذا دخل مكتبة، دَسَّ كتاباً بين لحمه وسرواله أو بَتَر مقالاً من مجلّة .. وإذا زار

إحداهنّ، أخذ شيئا ما .. وإن وَلَجَ بيت صديق، لبس لباسه، أو أخذ كُتُبه، أو سلب شيئاً، لا ينتبه إليه صاحبه في حينه ...

... ها هو اليوم تنخر الديدانُ عمودَه الفقري .. وتُعشِّش الباكتيريا في ذَكَرِه ... عاد إلى بيت مُربّيته، ليموت بعد أن ماتتْ حزناً على ذهابه دون رجعة ...

-١٦-

أخبر أحد رفاقه في المراعي بأنه لا يفكّر في الزواج مخافة ألا تتلاءم زوجته وأمّه .. فحبُّهما سيُشعل النارَ في دماغه، لا يريد أن يصبح بين فَكَيْ تمساح جائع: نار أمّه الضريرة ونار زوجته المشتعلة النَّضِرَة النَّاظِرَة!

يقال بأن أفعيَيْن لا تسكنان جُحْراً واحداً .. فغالباً ما يُشبِّه أهلُ قريته المرأةَ بالأفعى .. والسبب مجهول طبعاً، لكنه قابل للتأويل: المرأة طَيِّعة الالتواء، ناعمة الجِلْد، تنزلق بسهولة، جسدها قابل للانعطاف أكثر من الرجل ... لذا، ربمّا، يسمّونها كذلك، وكفى ...

اكتفى الابن بصداقة خرافه التي وجد فيها كلّ ما يبتغيه .. إذا افترضْنا زواجَه من فتاة ناعمة بضّة، تحفظها العادات في الظّلّ، كما تحفظ العُلَبُ الأشياءَ، فأيّ فتاة ستقبل أن يلامسَها جِلْدُ بَطْنِ يَدِه الذي يُشبه القشرة الجِلْدية المشقّقة لأرجله؟ لا يمكن أن يُمرِّر يداً أو رجلاً كهذه فوق أيّ جسد، بل إنها لم تعد تُسعفه ولو للإمساك بما بين فخذيه أثناء البول أو الاستمناء .. يده لم تعدْ كما كانت زمن المُرَبَّى.

-١٧-

اشتغل الابنُ خلال إحدى شهور الصيف - قبل وفاة أبيه، ليُصبح "رأساً" ضمن قطيع أحد إقطاعيّي مسقط رأسه - بإحدى معامل تصبير وعصر وترقيد الخضر والفواكه المتوفّرة حسب الفصول. صادف ذاك الصيف توافُر فاكهة المشمش. كان الطلب على اليد العاملة متزايداً نظراً لارتفاع درجة الحرارة التي أفسدت المنتوج. ينزل سماسرة العمّال بشاحناتهم إلى البوادي القريبة من المدينة، ويجلبون العمّال كالخراف في الشاحنات.

ارتمى الابن ضمن فوج من أفواج عمّال الشاحنة. كانت مهمّة العمّال إزالة النواة من الفاكهة. وبما أن المشمش كاد يذوب من فرط الحَرّ، فقد كانوا يُفرغون الصندوق بأكمله في آنية بلاستيكية، ويبحثون عن العظام بين العصير الذي تسبح الديدان وسطه، كما تسبح يرقات الضفادع في المستنقعات المتعفّنة.

في نهاية العمل، يفرح العمّال ببياض القشرة الجلدية لأيديهم .. كانوا يتلذّذون ليلاً بمداعبة مشمشاتهم!

منذ ذاك الحين، زهد الابن في المشمش والمربّى ...

-١٨-

يجوع البروليتاريّ الصغير في المعمل، ولا يعثر على قطعة خبز مُرّ أو حاف أو كاف .. يرى صندوق المشمش أو صندوق الدود .. يتساءل بنوع من السخط التبريري:

- ما العيب في أن يأكل المرءُ الدودَ؟

- ألم يقلْ أسيادنا الأوائل: "دُودُو مَنْ عُودُو"؟

- أليس ما أراه طابق لحم معسل؟ ولم لا نتصوّره هكذا؟

- ألا توجد في بطننا آلاف الديدان والباكتيريا؟

- ألا نعثر في ثقب مؤخّراتنا على دويدات وثعابين صغيرة (حْنَيْشَاتْ) يدفعنا نهشها لجنباته إلى إدخال أصبعنا قصد درء الألم .. فننسى ونأكل بلذّة؟

ثقل رأسه من كثرة الأسئلة، فأغمض عينَيْه، وأخذ يلتهم ما بالصندوق، كما تلتهم البقرةُ الضَّاحكة العشبَ، وما يعلق به من ديدان وحشرات دون تمييز .. فالمصفاة في البطن.

شبع، وأصدرتْ معدته صوتاً انفجارياً، يشبه قنبلة مشمشية انشطارية.

-١٩-

تبادل الناسُ التحايا أمام الترع. حاط الماء بمساكنهم. تبدّدتْ مخاوف الموت وأهوال الغرق. الموت بعد الفقر كارثة، موت مجّاني.

دَبَّت حركةٌ في الناس والبهائم، استيقظ مَنْ لم يكن يرى حاجة إلى الاستيقاظ المبكّر. نهضت البهائم دون مساعدة.

لبس الفقيه برنوسه، وجلس أمام باب المسجد الذي سطا اللصوص على بابه الرئيس وأبواب غرفه وألواح الطلبة الخشبية والمصاحف وبعض الأفرشة و"قراطيس" الشمع ...

الفقيه يعلم تفاصيل القرية كلّها، مراقبها ومترقّب أحوالها، يُدوّن الولادات والوفيات، يرصد الجوائح والمسرّات، ينوب عن القائد في تدوين ما يحصل للعباد .. ظلّ الله والسلطة في القرية!

رَمَقَ الفقيهُ الابنَ يحفر مسلكاً للماء، كي يفكّ الحصار عن مسكنه .. ناداه .. التحق به، وترك مسافة بينهما. مقدار المسافة الفاصلة بين الملاكم وخصمه قبل بدء جولات الملاكمة .. بادره الفقيه بالقول:

سأحسم معكَ خصام السنين .. لن أطرحَ على كبار القبيلة مقاطعتكَ لي، عدم إطعامكَ لي، عدم دفعكَ لأجرتي ...

أوّاهْ! ما الذي وقع؟ تعرف أنني رصدتُ صبياً تحتكَ!

لن يتحدّث ولد رحمة عنكَ في الجمع أمام القائد ...

سرُّكَ في بئر، أيّها الفقيه.

-٢٠-

كان ولد رحمة، أحد أغنياء البلد، ومالك أكبر قطيع أغنام فيه، يرغب في الزواج من أمّه قبل أن تتزوّج بمَنْ له منها ابنها الوحيد، نور عينَيْها بعد أن فَقَدَتْ نور بصرها .. حاول أن يُغري أباها بشتّى الوسائل، كي يفوز بها، كان جمالها يفوق الوصف، كما تدلّ حروفه الشاهدة، لكنه لا يرغب في أصحاب الكروش المنتفخة التي تحجب رؤية ما يوجد أسفلها. رفضتْهُ كما يرفض الجسمُ الفيروسَ.

بقيت روحُ الحقد قابعةً في دواخله. استدرجَ الابنَ لرعي قطيعه مقابل إغراءات كثيرة. لم تستطع الأمُّ مَنْع الابن لعدم توفّرها على حجّة مقنعة في زمن الضيق والخصاص.

انتهت السنة، ولم يتلقّ الابنُ نصيبَهُ. طالبَ بنصيبه. تآمرَ عليه الفقيه والأعيان. لم يُنصفه القائد. لم يُنصفه الأقرباء.

هاجر صديقه حَيْمُود دون رجعة. الوحيد الذي كان يفكّ عنه العزلة. جعله يعيش جوّ الجامعة والحياة الجامعية دون أن يراهما. كانت تُعجبه كلمة "نضال" و"رفاق" و"نقطة نظام" لمّا ينطقها حَيْمُود متلعثماً بالنبيذ.

انتظر صديقه كلّ سَبْتٍ .. سَبْتَيْنِ .. تعدّدت السُّبُوت، إلى أن يئس من طول الانتظار .. عندما ينصرف سبت، ولم يظهر لصديقه أثر، يتصوّره معانقاً

رفيقته، أو مخاطباً "الجماهير الطلابية"، أو تائهاً في براري غابة "المعمورة"، أو شارداً بين حافلات "القامرة"، أو متسكّعاً بين حانة وأخرى، أو يمسك القلم ويبحث عن سبب تزحزُح صخور المغرب المعاصر واندحار صقوره!

-٢١-

لم يستمتع كثيراً بروايات صديقه ومغامراته مع بنات الحيّ الجامعي. شَكَّلَتْ صورة عمّه وهو يضاجع زوجَتَهُ فوق كومة من التبن حاجزاً بينه وبين تصوُّر الأجواء الأسطورية للمضاجعة. البطن على البطن .. البطن على الظهر .. الصدر فوق الصدر .. الزغب يناغي رأس النهد الثائر المستنفر .. زفير وشهيق وتأوُّه .. تنهُّد وشَدّ وجَذْب .. دفع واندفاع وتدافُع .. اللسان في عمق اللَّهَاة .. اللَّهَاة كاللَّهْو في أثناء اللُّهَاث .. اللَّهْو بكلّ شيء ...

هات .. هات .. ها .. ها .. هو .. هو .. هه .. هه ..

كان يتصوّر أن الأفظع سيقع لعمّه وزوجته! ماذا لو أكل كلٌّ واحد منهما الكثير من "البلبولة"(*) وشربا سطلاً من اللبن؟.. تنتفخ الكروش، تنفتح المخارج .. البول والتّغوُّط والإفرازات .. والروائح؟!

وكم حكاية تُحكى عن أولئك المنفجرين في جلسات "الزرود"(**) أو بفعل الرهان على أكل أكبر عدد من فاكهة "الهندية"(***) .. وما أدراك ما الهندية؟ أكلُها حُلْوٌ .. التمادي فيه سَهْلٌ .. والتَّخلُّص منه مُرٌّ!

---

*) ما غَلُظَ من دقيق الشعير الخشن، وتُسمّى "الدّشِيشَة".

**) جمع لكلمة دارجة، مفردها "زردة"، وهي مشتقّة من فعل ازدرد ...

***) فاكهة الصَّبَّار ...

-٢٢-

يتطلّع إلى تكرار تلك اللحظات الهاربة التي كان يحمل فيها رفقة صديقه "قارئ الأشرطة الصوتية" وهما ينفخان جيوب سروالَيْهما الدجينزيَيْن بالكاسيط، فيتجوّلان في كلّ مكان تاركَيْن أثر النَّغَم يتشظّى ويتلاشى في الفراغ.

يتسلّيان بذِكْر حكاية أصابع الأخ الأكبر لحَيْمُود حين كان يشتغل بدار الدّبّاغ بمراكش: كانت أصابع يَدَيْه ورجلَيْه تأخذ كلّ يوم لوناً .. وما بالكَ بأعضائه الأخرى التي كانت تتدلّى كما كان يتدلّى الباذنجان في الجنينة المجاورة للمنزل قبل غزو الحَرِّ لكلّ بَرٍّ؟!

لم تكن تُسعفهما إلا الموسيقى للانسجام مع ليل البادية الوضَّاء وسكونها الرهيب وفراغها الممتدّ .. الموسيقى قد تحتاج إلى هذا كلّه، وربمّا هذا أصلها!

ساهمت الموسيقى في اجتثاث فكرة الانتقام من عمّه الذي استغلّ يُتمه المبكّر رفقة أخيه، فسطا على كلّ شيء.

الموسيقى أيضاً سطو على المنسجم من الأصوات في الطبيعة.

كافح الأخُ الدّبّاغ من أجل الأخ الأصغر، كي يقرأ ويشتغل.

ربمّا! قد يعود، والعود محمود، علّه يتذكّر صديقه والروائح الأولى التي استنشقتْها خياشيمه مع أوّل صيحة أطلقها في هذه الشساعة الحمقاء. فالفرد ربمّا لا يستقرّ إلا بمكان يجد فيه بعضاً ممّا تلاشى من ذكريات طفولته، وممّا يحلم به!

-٢٣-

يعود صاحبه إلى مكان الولادة، كي يتذكّر مَنْ مات هنا بالجذري أو العَوَّايَة(*) أو بوحمرون(**) أو لسعات العقارب أو لدغات الأفاعي أو بفعل النزيف في أثناء الوضع أو ليلة العرس .. يأتي ليعود أمَّ صديقه، أمَّه، التي لولا حلمة ثَدْيها، لَضَاعَ! قاسمتْهُ حليبَ وحيدها، وأرقدتْهُ جنباً إلى جنب قُربه. يأتي كي لا تزولَ الأخوّة من الكون. يأتي كي يبول على قبر عمّه كلّ ليلة.

هل انقلب أُسوة بأخيه الدّبّاغ الذي يملك اليوم ڤيلا أنيقة في حيّ النخيل قرب برنار الفرنسي. ترطن بناته بلغة الروم، ويتلمَّظنَ ماء الكروم .. أُو بخيييييييير!

نام الصديقان في العراء .. عشقا الليل .. كان كلّ واحد منهما يسافر عبر النجوم كلّ ليلة، ولا يعود إلى الأرض إلا حين يتوهّج قرص الشمس كلّ صباح!

---

*) مرض السعال الديكي.

**) مرض الحصبة.

-٢٤-

استفاق العائد إلى القرية على صوت زياد الرحباني وهو يردّد:

أنـــا مـــش كافـــر .. بـــس الجـــوع كافـــر
أنـــا مـــش كافـــر .. بـــس المـــرض كافـــر
أنـــا مـــش كافـــر .. بـــس الفقر كافـــر والـــذّلّ كافر
أنـــا مـــش كافـــر، لكـــن شـــو بعملـــك
إذا اجتمعـــوا فِيِّـــي كل الإشْـــيَا الكافريـــن
أنا مش كافر ...

استعاد صدى حلقات الجامعة حين كان زعيماً طلابياً، ينتصر للمصلحة الطلابية، ويُنَصِّبُ نفسه شارحاً لـ"البيان الشيوعي" و"الإيديولوجيا الألمانية" .. مستنسخاً لأوراقها، محافظاً على سرّيّتها، معتقداً في صلاحيّتها لتفسير واقع، استعصى على التفسير. خَبَتْ عاصفة الثورة فيه. قتلتْها فيه البيروقراطية. مكتبه بارد كالصقيع. يسير بالتعليمات، ويتوقّف عند التعليمات وبفعلها. تحوّل إلى مُجرّد آلة بيروقراطية تُنفِّذ. يسحب أجره من المخدع الأوتوماتيكي. يرتكن إلى زاوية في بار غير صاخب. يشرب. يتأمّل. يكتب .. ولا ينشر. لا يؤمن بقيمة ذلك، ما دام الناس يتعلّمون القراءة والكتابة من أجل أن يصبحوا موظّفين .. ها هو اليوم موظّف .. وماذا بعد ذلك؟!

-٢٥-

كسرت الكلاكصونات والزغارد والهتاف والصفير .. روتين الصمت بالقرية. سارع الصديقان باتّجاه الحشد الصاخب .. المنفعل .. الهاتف ...

جاء القائد. سيّدي القائد. قال القائد. نعم، سيّدي القائد. كلام القائد حقيقة. يأمر القائد. يَسجن القائد. يعفو القائد. يشتهي القائد. يملك القائد. يختار القائد ...

القائد .. القائد .. عاش القائد .. عاش عاش .. آش .. آش ..

آشْ هَادْ لَحْرِيرَة؟

ينطقها الاثنان دفعة واحدة دون اتّفاق مسبق، وينصرفان!

- ألم يجد وقتاً آخر إلا هذا كي يأتي فيه؟ يُعلّق أحدهما.

-٢٦-

ما إن يحلّ شهر الصوم حتّى يصبح العديد من الناس منقّطي الأنوف. نقط صفراء تتراكم يوماً بعد يوم إلى أن تتقشّر من تلقاء ذاتها، أو تزول بفعل التمخّط أو الحرّ!

نقط تتكوّن نتيجة ترسُّبات سائل الحريرة، الأكلة الرئيسة للإفطار في رمضان. يشربها الناس بمغارف كبيرة، تتجاوز حدود شفاههم العليا، فلا تحجزها إلا أرنبة الأنف. يَعْلَقُ مَا يَعْلَقُ، ويحتسي الناس محتويات المغارف مصدرين أصوات عجيبة:

- بخ .. بخ .. بخبخ .. بخبخ .. فت .. فت ..

لا يغسلون أنوفهم. أما الاغتسال، فتلك حكاية أخرى!

-٢٧-

هناك مَنْ يغتسل لأنه قد تزوّج امرأة .. وهناك مَنْ تزوج "مَرْمَرَة" .. وهناك مَنْ تزوّجتْهُ امرأة. مَرْمُورِيَّة، حْرِيزِيَّة(*) أو مَدْكُورِيَّة!(**)

هناك مَنْ يغتسل لأنه متزوّج .. وهناك مَنْ لا يغتسل لأنه مْكَوَّزْ .. وهناك مَنْ أتى جانب المُكَوْزِين، وكَوَّزَ ... والتَّكْوَازْ يعني الانحناء بالرأس تجاه القَدَمَيْن دون ثَنْي الركبَتَيْن مع تقويس بسيط للظهر، وترك المؤخّرة مُشرَعَة على الهواء!

هذا بعض من مَحكيات سلالة غير المغتسلين في رمضان .. فصيلة منقّطي الأنوف!

---

*) نسبة إلى قبيلة أولاد حريز.

**) نسبة إلى قبيلة "لَمْدَاكْرَة".. وتفيد كلمة "لَمْدَاكِرْ" (المداكر) في العربية المغربية الأعضاء التناسلية للرجل.

-٢٨-

كانت النساء اللائي يتزوّجنَ الرجال ونساء المُكَوْزِين يقمنَ بعادة التَّكْوَازْ أثناء الخصومات والمشادّة والتلاسن بالكلام الفاجر والفاضح الطافح باستعراض المناقب وتعداد المثالب وإبراز المدخرات!

تَبْعُدُ الواحدة عن الأخرى بمسافة محترمة. تضع رأسها بين ركبَتَيْها، إلى أن ترى غريمتها من بين ساقَيْها. تُكَوِّزُ تجاهها مُزِيلَةً سروالها الشاسع كَاشِفَةً عن بياض عجيرتها التي لا تستطيع امتصاص أشعّة شمس الصيف اللاهبة، فينعكس الضوء كاشفاً عن سوادات الثقوب وغابات الشَّعْر .. مُفصِحاً بجلاء عن مكتنزات سراويل فصيلة المُكَوِّزَات(*) في رمضان ... وتلك كانت عاداتهنّ في أثناء كلّ شنآن (التَرْمَضِينَة)!

*) والكوز، يا سادة، هو الكأس، والكأس هو الكُسُّ، والكُسُّ، يا سادة، هو الفَرْجُ، والانفراج هو الطاقة، والطاقة هي الكُوّة التي من خلالها يُرَى الكون جملة وتفصيلاً ...

-٢٩-

يأخذان آلتهما المسجّلة، ويذهبان ليلاً إلى أعماق الخلاء .. يجعلان زرّ ضبط الصوت يصل إلى مداه .. مدى صوت الخلاء. يرقص الأوّل رافعاً رجلاً، وواضعاً أخرى .. محرّكاً يده المهزوزة إلى أعلى تارة، والمنخفضة إلى أدنى تارة أخرى .. الخطوات محسوبة .. يضع كلّ رِجْلٍ في مكانها بدقّة .. تليها الأخرى بتناسق .. يتحرّك الظهر والأكتاف .. يتمّ الهبوط والصعود في تناغم .. يبتعد عن صديقه المستلقي في دَعَةٍ جنب الآلة، إلى أن يكاد الصوت يتلاشى، ثمّ يعود كما انطلق مكرِّراً الحركات نفسها .. محافظاً على الانسجام نفسه .. الرقص ضبط الجسد والأحاسيس على إيقاع ما ...

- تَاكْ تَتَاكْ .. سْتَاكْ أَتَاكْ .. تَاكْ تَتَاكْ .. سْتَاكْ أَتَاكْ ...

الرقص في الخلاء .. الموسيقى في الخلاء .. كالخلاء في الخلاء.

يجلس الأوّل، وينهض الثاني. يقف صامتاً دون حركة كعمود في الخلاء. تبدأ الحركة سريانها في العمود. تتحرّك الأيادي. يتململ الجسد. تتدفّق الحركات. يسري الرقص في الجسد.

فَتْ سَتْ .. سَتْ رَتْ .. سَتْ سَتْ .. رَتْ رَتْ ...

يختفي حتّى يكاد الصوت يختفي، ثمّ يعود راسماً ظلّه على الأرض المُضَاءَة بالقمر، وكأن مصابيح الفراديس المفقودة حضرت هذه الليلة المقمرة، كي تعكس هذا الخيال الراقص، وتختفي!

-٣٠-

يمرّ الشيخ حُمَّان محاذياً لهما وهو يسمع صوت الرِّيگي "Reggae" على لسان بوب مارلي. يرصده أحدهما، ويدعوه للاقتراب. يقترح عليه الاستماع قصد التّعرّف على نوع الموسيقى:

How good and how pleasant it would be before God and man, yea-eah!
To see the unification of all Africans, yeah!
As it's been said a'ready, let it be done, yeah!
We are the children of the Rastaman;
We are the children of the Iyaman.

أصاخ سمعه وهو يهزّ حاجبَيْه، ويدير أذنه اليمنى قرب مكبّر الصوت. رفرفتْ عيناه بسرعة. غار بؤبؤاهما في أعلى الجمجمة. نظر إليهما قائلاً بحزم وحسم:

مَاشِي هَاذْ الشِّي هُو ذَاكْ لَقْلاَوِي دْيَالْ لاَنْدَلُسْ؟ أنا ما كنعرف ما عدا العيطة والدياكس (يقصد "Les disques") دياول الشَّلْحَة.. خَلِّينِي مَنْ الخَوَارْ... سَمْعُو آش كَتْگولْ الشِّيخَة مليكة:

هزيت عيني ليك آربي
حطيت عيني وافرح قلبي
واللي بغا الله گاع بغيناه

يا ما اضربتو ما قَلْتُونَا
ياك صگونا صاگونا
ياك صاگونا للزيتون
ياك تَمَّ ناض الزَّيْتُول
وحتّى واحد فينا ما هاني
اللي تهرس ها الكْرَارَسْ
و اللي تْفَرْمَ يبقى تَمَّ
واللي تْحَفَّ ها شربيلي
واللي تْعَرَّى ها سلهامي
واللي بغا اللاَّمَة يتعامى

يتأمّل الواقفان الشيخ حُمَّان وقد انسجم مع إيقاع المقاطع، وصار جسده يهتزّ رغم الكِبَر والوهن .. يقطع الشيخ كلامه مخاطباً إيّاهما بلكنته البدوية القحّة:

- أُو زِيدْ أُو زِيدْ.. مَاشِي بْحَالْ ذَاكْ الشِّي دْيَالْكُم!

-٣١-

كانت الشيخة مليكة ضمن مجموعة غنائية للشيخات. جميلة. رشيقة. مكتنزة. صوتها عذب. أسنانها بيضاء كذراعَيْها وفخذَيْها. ذات رقصات جذّابة. صاحبة "تعريضة"(*) قاتلة. كانت رقصتها تجعل بعض الحاضرين يتهوّر في النهوض لمراقصتها، فيتحوّل العرس إلى مجزرة. عجيرتها مُدوَّرة، تتحكّم فيها أثناء الرقص، وكأنها منفصلة عن بقية الجسد. كانت قاتلة بالفعل. تحرّك كلّ جزء من جسدها وكأن له أزْرَارَ تَحَكُّمٍ خاصّة. الأفواه مفتوحة. الأعين مفتونة .. والأشياء تطول!

تبدأ الشيخة مليكة بعَيْطَة مرساوية، وتليها أخرى حوزية .. تتداعى التفاعلات والانفعالات. تتراكم الهموم والأحلام. تتوالى الكؤوس. تتقاطر الأوراق على صدر مليكة. يجتهد النَّاهضون من سلالة "العَلاَّقَة والغُلاَّقَة" في انتقاء أماكن وَضْع الأوراق النقدية على جسد مليكة الذي يتحوّل إلى ما يُشبه "رَكُوبَة" وَليّ صالح.

وما أكثر الاستعراض!

---

*) نمط من الرقص الشعبي.

-٣٢-

ماذا بقي اليوم؟ ومع مَنْ تأخّرنا؟ وكيف سيكون حالنا؟

حلقات الجامعة غزاها الهيكسوس والتَّتَر من فصائل اللحي والبراقع. زال زمان السّرّيّة والخلايا، واندثرتْ معه الأحلام. لم تعدْ مصطلحات ماركس ولينين وإنجلز وألتوسير .. صامدة في وجه الوهّابيّيْن الجدد! ساد الجهل في صفوف الناس، واستشرى. لم تعد للتعليم إيديولوجيا. الإحباط ينطح الإحباط .. الإحباط يملأ الأفق.

سار الصديقان تجاه المسجد، والأفق يعلوه الغبار. سيّارات تُطوّق المسجد. سائقون ينتظرون في حالة تأهّب. ذرّات الغبار تتساقط بخفّة على واجهات السّيّارات، وزجاج نظّارات الواقفين السوداء.

يظهر بهو المسجد مملوءاً بدخان الشواء. رأى أحدهما في عينَي الآخر، وعلَّق أحدهما السؤال التالي في السماء:

ألا يستطيع هؤلاء أن يقوموا بعملهم دون هذا الدخان؟!

-٣٣-

عندما كانت سيّارة الدَّرَك من نوع "Jeep" أو "Land Rover" أو أيّة سيارة أخرى يستعينون بها للقبض على بائعي "الكِيف"(*) والحشيش وسُرّاق المواشي والمحاصيل .. ينصرف الناس كلّهم وكأن الأرض تبتلعهم! الكلّ يصبح متّهماً. يتحوّل رجال الدَّرَك إلى غرباء، وكأنهم يحلُّون بأمكنة مهجورة. لا يجدون مَنْ يسألون أو يكلّمون. وحده الفقيهُ دليلُهم .. الشاحنات والجرّارات وحدها كانت تجعل الناس يخرجون مطمئنّين .. فهي إمّا حاملة للعَلَف، أو قادمة لاشتراء فواكه "الهندية" التي تُحَوِّلُ أصابع المشتغلين بها إلى ما يشبه البالونات الصفراء جرّاء التّقيُّحات الناتجة عن وخزات الأشواك الدقيقة العالقة بفاكهة الصّبّار العجيبة.

كان البعض يشتري فواكه مزارع "موريس" وضيعات "روبير"، ويعكف هناك إلى أن تخرف الفواكه .. تظهر خلال هذا الفصل فصيلة تشتغل في الجنينة، وتنام في الجنينة، وتأكل من الجنينة، وتقضي بالجنينة مآرب أخرى .. لا تعثر، وأنتَ المارّ بجانب صفوف الصّبّار، إلا على قِطَع فضلات غليظة كآثار أركيولوجية دالّة على وجود فصيلة آكلي الهندية، مقيّحي الأصابع!

---

*) القنّب الهندي.

الجزء الثاني

-١-

لم يستسغ العديد من شباب القرية الطُّرُق التي آلتْ بها ضيعات المستعمر إلى بعض الوجهاء بعد اندحار الاستعمار وجلائه عن القرية! ظلّ البعض ينتظر فرصة إعادة قسمة الأراضي السقوية من طرف السلطة، بفارغ الصبر. لم يعد البعض يمتلك ولو قطعة أرض، يغرس بها بعض صفوف الصّبّار، كي تحمي عورته أثناء قضاء حاجته .. الصّبّار مرحاض الناس هنا .. ملاذ العاشقين للاختلاء.

الفلاح دون قطعة أرض جريمة! يقول الأوّل.

الأرض لمَنْ يفلحها! يُعقّب صديقه.

الأمور ليس كذلك هنا. لا حقَّ للمرأة في الأرض. لا حقَّ لمَنْ غادر القرية في الأرض .. الأرض للرجال ولمَنْ بقي هنا.

وقف الاثنان في وجه الشيوخ وأتباع القائد، كي ينال كلّ مَنْ في القرية والمنبثقين من أصولها نصيبَهم من الأرض. كان وَقْع الصدمة قوياً على الشيوخ حين اصطفّ الناس في صفِّ الشَّابَّيْن. أعلنوا تأجيل المسألة إلى غاية رَفْع الأمر إلى القائد.

كان ليل القرية غارقاً في الأحلام بعد أن سرى الخبر بين النساء والشباب. لم ينمْ أحد تقريباً. سرى الهمس، واختلط باللمس .. بعض لحظات التّوتّر قد يُخفّفها التَّمَاسُّ!

-٢-

وقف النساء والشباب يوم القسمة أمام المسجد كالتماثيل الجامدة. مرّر القائد يده على بطنه المنتصب. طلب منهم تشكيل لجنة القسمة. احتجّ الحشد على تمثيل الشيوخ الدائم لهم. يهتفون باسم الشَّابَّيْن. يخبطون بأرجلهم أرضاً، إلى أن علا الغبار، فيما يشبه الغيمة، الرؤوس.

نظر القائد إلى رجلي المخزن المحيطين به. فطن إلى أن الجمع سيجعل منهم مُجرّد سندويتش في حالة إصدار أيّ أمر بتفريقه. قرّر الرضوخ لطلب الناس.

خرج الشَّابَّان يشيران بأصابعها إشارة النصر. انسلّ الحاجّ "بْرَيْهْمَاتْ"(*) يُغمغم بكلام غير مسموع. ذهب قليلاً، ثمّ سقط أرضاً.

---

*) تصغير إبراهيم.

-٣-

بعد انتهاء أربعينيّة أمّه .. أتى الابن بفاطمة، كما كانت تتمنّى أمّه ذلك. كانت قد رحلتْ رحيلاً خفيفاً. لم تتألّم. لم تتأوّه. تأخّرت في نومها على غير عادتها. تعجّب ابنها من ذلك! تركها في البداية بعض الوقت، علّها تكون قد عانتْ من الأرق. عاد من الجنينة، فاقترب منها دون إزعاج. كان يرغب في سماع صوت أنفاسها. لم يسمع شيئاً. حرّكها برفق، كي تستيقظَ دون فزع.

هيهات! هل سيتحرّك مَنْ مات؟!

تزوّج زواجاً خفيفاً. بدون شيخات، ولا ماء حياة. فاطمة، ماؤها، هما الحياة. حضورها في البيت كدخان الصباح فوق سطوح القرية: دليل الحياة .. حياة الأنثى.

-٤-

يجتمع الأطفال قبل الغروب بساحة القرية. يلعبون في اختلاط تامّ. يُقلّدون الكبار والحيوانات. يُغنّون أغاني "الشيخات" و"عبيدات الرما". يتقمّصون دور العريس والعروس. يرقصون سواسية.

في إحدى لحظات العُرس الطفولي. وصلتْ لحظة الدخلة. رسم الأطفال للابن (العريس) وعروسه (فاطمة) بيتاً على الأرض. وضعوا فيه فراشاً. أدخلوه فورا. بدأ الأطفال يُردّدون أُغنيّة الانتظار:

مْشَى الليل أو جَاتْ ليالي
واه أبابا
صورتك ديما في بالي
واه أبابا
ادِّيهْ أو جِيبُو
واه أبابا
كُلْهَا يْعَنَّقْ حْبِيبُو
واه أبابا

بدأ العريس يداعب عروسه تمهيداً لجَعْلها تستلقي على ظهرها. ارتمى أبوها عليهما، كما يرتمي القطٌ على الفأر. جرَّهما وأصواتهما تتعالى، وتبتعد.

ربطهما الأب ببيت التخزين. أشعل النار في كومة من نبات الغَاسُولِ البرّيّ وهو لم ييبسْ بعد. يتكاثف الدخان. يتصاعد البكاء والاختناق. تسللّتْ أمّ فاطمة التي كانت تزور أهلها إلى البيت بعد انصراف الأب إلى المسجد لأداء صلاة المغرب. أطلقتْ سراح العروسَيْن، وألحّتْ على عدم الاعتراف. خرجتْ ما دام قد نفّذ احتجازه في غيابها. إذا وجدها في المنزل، فتحلّ مكانهما بالتأكيد. سيتّهمها، ولو كانت بريئة! لقد حبسها ليلة كاملة في إسطبل بغله الذي مات منذ تسع سنوات تقريباً.

-٥-

للرجل حكايات غريبة مع البغال. لم يتزوّج من القرية نفسها، بسبب البغال. لا يجتمع مع الناس بسبب البغال. لم يعد يطيق اسم البغل ...

ليلة زفافه، بعد أكْل بعض الفواكه اليابسة، وشُرب الشاي، وتبادُل كلمات تعارُفية بسيطة، مرّرتْ زوجتُهُ يَدَهَا على علامة في جبينه، فسألتْه:

ما سبب هذه العلامة الموشومة هنا؟

احمرّ وجهه، ولم يستطع أن يجيب. أرادتْ أن ترفع الحرج، فأردفتْ سؤالاً آخر، يفكّ عقدة لسانه:

هل يتعلّق الأمر بوَحْم؟ ... ما أجمله!

همهم ببعض الحروف دون أن تستطيع فكّها .. قالتْ لمّا ابتسم:

وشمك يشبه صَفِيحَ ...

انتظرتْهُ أن يرفع رأسه، ثمّ أكملتْ سؤالها:

هل ركلكَ حصان أو بغل في صغركَ؟

انتفض مُكسِّراً ما في البيت، فخرجت العروسُ فَارَّةً، تطلب

النجدة. حَكَتْ لأهله وأهلها ما وَقَعَ. تدخّلوا لتلطيف الجوّ، واستمرّ العرس. لم تستطع أن تذكر اسم البغل منذ تلك الليلة العجيبة. أزالتْهُ من بنكها اللغوي. كانت تصفه بكلمة "هَذَاكْ"، كي لا تنطقها رغم أن القرية مليئة بالبغال!

عَدَّتْ نفسَها متزوّجة من فصيلة حاملي علامات الصفائح .. كارهي البغال!

-٦-

ما الزواج؟ أليس أخطر مؤسّسة خلقتْها البشرية للتدجين؟ أليس مُجرّد تبادُل للتبعية؟

ليس الزواج تضحية كما علّمونا، بل هو موت بطيء .. موت المرأة في الرجل، وموت الرجل في المرأة. إذبالٌ للبَدَن، واستنزاف له من أجل الآخر. البدن ليس مُجرّد لحم وملحقات .. البدن اشتهاء وتدبير مُعقّد للاستيهام.

علاقتنا به وبالزمن تُحدّده وتُحدّدنا .. كيف؟

تزاوُج. تناكُح. تناسُل .. في الفصول .. في الأعوام .. خلال الأفراح والأتراح .. بعد الفرح حزن .. وبعد الحزن فرح .. وتتبلور كينونتنا عبر هذا التعاقب.

وَلَدت فاطمة، ففرحتْ بابنها فَرْحَةَ زواجها من أبيه. فَرَحٌ لا يضاهيه إلا نشوة وَضْع صغيرها الساخن المبلّل فوق البطن قبل قَطْع حبل السُّرَّة. هو يصيح وهي تبكي ضاحكة بين الحياة والموت. جسده الهشّ ودفءُ مائها ودمها كسخونة الحياة والموت واللّذّة والألم .. إن كان لهذا كلّه دفء!

-٧-

تنهّد الأب وهو يتمنّى لو كتب لأمّه الضريرة احتضان ابنه! كم كان يتمنّى أيضاً أن يرى أباه! ابتسم محوِّلاً نظراته صوب زوجته المستلقية بجانبه. انتبهتْ، وبادلتْهُ الابتسامة. نظر إلى عينَي ابنه، وفكّر في طريقة تربيته التي ستكون حاسمة في القطع مع الممارسات التي اعتادها الناس هنا. لا للخرافة والشعوذة والتمائم والأولياء والفقهاء والعجائز .. ولا للكُوزَة (جوزة الطِّيب) المُدَوِّخَة.

يعرف أن زوجته فاطمة ابنة امرأة مُدرّبة على جُلّ الممارسات والطقوس المتداولة هنا. ابتعادها النسبي عن أمّها لا يلغي أنها عايشت وشاهدتْ تلك الإجراءات كلّها. البنت امتداد لأمّها! كانت ترافق أمّها إلى الجبل، كي تزور الشَّوَّافَة(*) وتحمل أخاها عند الفَرَّاكَة(**) كي يأخذ نصيبه من المحلول العجيب!

---

*) امرأة تمتهن الكِهَانة والتبصير ...

**) امرأة تمتهن مُداواة الأطفال بطُرُق شعبية تقليدية ...

-٨-

كانت إحدى عجائز القرية تصنع محلولاً كيميائياً، له قدرة فائقة على إسكات الصبايا والرّضّع الذين يكثر بكاؤهم، ويطول سهرهم .. تعتقد الأمّهات أن ذلك نتيجة تعرُّضهم لأذى العين أو السِّحْر أو المَسّ .. يُجرّبون الأقاويل والنصائح كلّها دون نتيجة .. لكن محلولاً من الزيت والگُوزَة كان يساهم في إخماد الصبيّ إلى ساعة متأخّرة من الصباح.

تضع العجوزُ الزيتَ في آنية فخّارية أو شَقْفَة من بقايا قصعة من الفخّار ذات سمك جليّ. تحكّ نصف الگُوزَة. تضع بعضاً من المحلول في زجاجة دواء صغيرة، تأتي بها أمّ الصبي خصّيصاً لذلك. توصيها بإعطائه قطرة أو قطرَتَيْن من المحلول لمدّة سبعة أيّام. ويجب أن تكون حريصة على عدم تقبيل أيّ أحد له، كي لا يبطلَ مفعول الدواء طيلة فترة التداوي!

هكذا يبدأ "الدواء"، ويسري مفعول الگُوزَة عبر خلايا أجساد الصغار الرهيفة. يصعد إلى خلايا المخّ، فيدوخ الأطفال، ويَغُطُّونَ في نوم عميق. وكم طفل نام ولم يستيقظ كما نام مايكل جاكسون بفعل الـ"Over dose"!

-٩-

"الجَّاوِي والحَرْمَل يَا سِيدِي يَا صَلَبَانْ(*)!"...

دخل الأب وصوت زوجته يكسر جدار الصمت بالبيت. رأى الابن محمولاً على مسافة متوسّطة بين يَدَيْها وهي تُهدهدُه ذات اليمين وذات الشمال وسط الدخان ...

- وَاعْ وَاعْ.. وَعْعععععْ.. وَاعْ وَاعْ.. وَعْعععععْ...

خطف الابن من بين يَدَيْها، وصاح في وجهها:

- آشْ هَاذْ الشِّي...؟!

رمى المجمر بمحتوياته كلّها، وحمل الصبي خارج البيت، كي يشمّ الأوكسجين. دَنَتْ منه، فنظر إليها بعنف، ثمّ طرح عليها السؤال:

ما معنى "صَلَبَانْ"؟

حجر يستعمله الناس في البخور قصد طَرْد الجنّ ...

لا أراكِ إلا أنتِ في هذا البيت .. أنتِ الجنّ الوحيد فيه!

ظلّ يرمقها بعنف. انصرفتْ تاركة إياه يتأمّل وجه ابنه الذي انتعش

*) مادّة صلبة تُستعمل في البخور ...

بفعل نسائم المساء المحمّلة بروائح أزهار الأشجار الموسمية المثمرة. هزّ الأبُ عينَيْه صوب السماء التي أعلنت النجوم السباقَ فيها مبكّراً.

تذكّر تنقّلاته الاستهزائية الفضولية رفقة صديقه خلال أيّام السوق الأسبوعي لاستكشاف حِيَل بائعي الدواء والفقهاء وأصحاب الحرف الروحانية .. فالسوق الأسبوعي مكان يُباع فيه كلّ شيء: القمح والزيت والمواشي والبغايا والتمائم ...

يحرّك رأسه يميناً وشمالاً مقارِناً تلك المواقف بما يجري الآن في عقر داره!

المنازل كلّها سوق مشاع للخرافة حتّى إشعار آخر!

-١٠-

من بعيد، وهو القادم من السوق يغالب أثقال درّاجته العادية، يرى امرأة مدثّرة في ثوب أبيض، تُسابقه حاملة صبيَّها على ظهرها نحو القرية. شَكَّ في مشيتها التي تُشبه مشية فاطمة. تناسلتْ إلى ذهنه أسئلة كثيرة:

- هي؟

- لا؟

- من أين قد تكون عائدة؟

- ما سبب خروجها؟

- لِمَ لَمْ تُخبرني؟

- هل مرض الولد فجأة؟

رفع من سرعة درّاجته. أدركها عند الباب .. فتحتْهُ، وفسحتْ له الممرّ. سألها:

أين كُنْتِ؟

عند الفقيه صحبة بعض نساء القرية ...

ما السبب؟

ألا ترى بأن الولد ممتقع اللون؟

وضع أثقاله، وعاد إليها. وَلَجَ البيت بسرعة. طلب منها شرح الوصفة:

كتب كتابَيْن: الأوّل يُعلّقه على جبينه، والثاني يُمْحَى في إناء بمقدار كأس من الماء، ويبيت ليلة واحدة في العراء كي تراه (؟) النجوم، فيتمّ غسل الصبي به!

أخذ التميمَتَيْن، ورماهما في الموقد، ثمّ أشعل النار فيهما.

تذكّر صورة جارتهم العرجاء وهي تُرغم ابنها الصغير على ابتلاع وصفة فقهية شبيهة.

-١١-

تمسك العرجاءُ كما يُلقّبها أهل القرية ابنَها الصغير بين ركبَتَيْها وهي تُسَرِّحُ رجلَيْها الضامرتَيْن، وتطويهما جزئياً نحو بطنها. يترنّح الصبي باكياً بقواه كلّها. تفتح فمه ضاغطة بإصبعَيْن على خدَّيْه تَارِكَةً الثالث يتدلّى صوب لَهَاته. تمسك بيدها كأس المحلول الذي وصفه لها الفقيه. تسكب بكياسة بعض المحتوى فوق أصبعها المتدلّي. يصل المحلول إلى عمق فم الصبي. يتدارك ذلك بعد أن فاجأه انسياب السائل داخل فمه .. يختلط الشهيق والزفير والصياح بالمحلول، فتصبح شهقته كشهقة المقاوم للموت أثناء الغرق!

محت العرجاء تميمة خُطَّتْ على كاغد أزرق مبتور من لفافات قوالب السّكَر. لون لا كالألوان يحتويه الكأس! بعض من زرقة الكاغد .. بعض من سواد صمغ الكتابة المصنوع من الصوف المحروق المذاب بالماء في دَوَاة الفقيه ذات الرائحة العطنة .. بعض من دَرَن أصابع أمّه.

يستسلم الصبي مجبَراً على ابتلاع الخليط! ينام .. يشخر .. يقفز مفزوعاً .. يصيح وسط النوم ...

-١٢-

كانت قوالب السّكّر تُفْقَدُ من الأسواق الأسبوعية بشكل دوري لأسباب مجهولة! حينها تسري أحاديث من نوع خاصّ بين الناس:

- بْغَيْنَا القَالَبْ أسِّي...

- وَلّفْنَا القَالَبْ...

- القَالَبْ حْلُو...

- كَانُو جْدُودْنَا كَيَبْغِيوْهْ...

- القَالَبْ فِيهْ البَرَكَة...

لا حديث إلا حديث القالب. تأويلات اختفائه تختلط بالسياسة والسذاجة. طريق السياسة سذاجة. الإصرار على شرب شاي القالب يحمل في طيّاته ألفة عجيبة لهذا الشكل المبتكَر الفريد من السّكّر. حلاوة القالب من حلاوة السّكّر، وحلاوة السّكّر من حلاوة القالب.

يشرب الناسُ الشايَ وأصواتهم الغريبة تتعالى:

- فُوفْ .. مْتَ .. فَسْسْ .. فُوفْ .. مْتَ .. فَسْسْ ...

أصوات تشبه أصوات القالب!

-١٣-

يفكّر الأب في ترتيب إجراءات ختان الصبي وتدبيرها، فإذا به يسرح بخياله الذي حمله إلى علياء لحظة طفولية مخملية. كانت جدّته تصرّ، وهو ابن السّتّ سنين، على مرافقة خالته ابنة العشرين سنة، كي يؤنسها ظاهرياً، ويراقبها باطنياً أثناء تكلّفها/تكفّلها برَعْي قطيع الأبقار في أثناء غياب أخيها الأكبر يوم الاثنَيْن للتّسوّق. فتاة بيضاء كالشمعة. صدرها ممتلئ وطافح. مؤخّرتها كالعجلة. ساقان كقوالب السّكّر. الأنف كحبّة القمح. شفتان مكتنزتان كفاكهة البرقوق الأحمر. أسنانها البيضاء المصطفّة تجعل ضحكتها شبقاً .. كلّ شيء يجعلكَ تشتهيها!

كانت تلعب معه "سْقَيْلَفْ"، فإذا بها تضعه في حجرها. تبدأ بحَكّ ظهره. تنتقل إلى بطنه. ينزلق أصبعها إلى شيئه البريء. تُقَبِّلُ فَمَهُ. تستلقي نحو الوراء مع إبقائه فوق بطنها. تزيل سروالها الفضفاض دون أن يُدركَ. يحسّ نفسه يغرق فيما يشبه البرودة أو السخونة! وكأنه جالس على إسفنجة ناعمة! طلبتْ منه أن يُغمِض عينَيْه .. وكذلك فعل! أزالت "تَحْتِيَّتَهَا"(*) الوحيدة، ووضعتها تحت رأسها، لتعضد بها السروال. طلبتْ منه أن ينام في حضنها. أحسّ بأن رأسه يضيع وسط كُرَتَيْن ناعمَتَيْن وشيؤه البريء يغور وسط أشواك، تكاد تكون ناعمة. سرعان ما ساعدتْهُ يد، لتجعله يسبح وسط

*) لباس تقليدي، تضعه النساء تحت القفطان، أو ما شابهه ...

اللزوجة. بدأ الجسم الذي أرغمه على النوم فوقه يتحرّك يميناً وشمالاً، فانتابه شعور شبيه براكب الجمل!

يتذكّر تلك اللحظة، فيردّد مُقهقهاً المثل القائل: "گَوْفَالْ عَمْتُو"!

ما أجمل الطفولة! تبيح كلّ شيء. كم خالة نراها وترانا باشتهاء!

كان وضعه فوقها يذكّره بوضعية "بيبي"(*) فوق دجاجة!

---

*) الديك الرومي.

-١٤-

يُحكى أن قوماً استوطنوا القرية منذ زمن قديم، كانوا وَلِعين أشدّ الوَلَع بتربية الدواجن. يهتمّون بالأشياء كلّها المرتبطة بها. الاجتهاد في إعداد خُمِّهَا. تتسريع وضعها للبيض. تفريخها على مدار السنة. تحسين نسلها. جَعْل ذُكُور فئات أخرى من الطيور الشبيهة بفصيلتها تعيش مع الإناث، كي تعطي نكهة خاصّة للبيض، وتعدل بعضاً من جينات الفراخ. اكتشفوا التعديل الجيني مبكّراً!

كان لدى أحدهم ديكة من نوع فريد. تشبه الديك الرومي من حيث الهيئة والسمنة. صدر غليظ. عنق ممتلئ. صفات لحمية تجمع بين لذّة الديك البلدي والديك الرومي. اقترب منه بعض مُربيّ الدجاج قَصْدَ معرفة الوصفة. سلّطوا عليه فتياتٍ ونساءً لإغرائه. تجسّسوا عليه بمختلف الطُّرُق. لم تنفعْ معه حيلة.

تسلّل أحد العارفين بأحواله إلى شجرة مجاورة لمنزله وخُمِّ دجاجه قبل استيقاظه بنصف ساعة. رَصَدَ حركاته وسكناته. عرف وَلَعه بالنهوض المبكّر. راقبه. نهض الرجل. بال. حضَّر أكل الدجاج. قبض ديكاً في مقتبل العمر. وضعه بين رجلَيْه. نتف ريش مؤخّرته. قلب دُبره. عزل خُصْيَتَيْه. بَغَجَهُمَا(*)

*) بَجَعَ (عربية)، يُقال للديك خاصّة عند إخصائه .. وربّما كان هذا أصل الكلمة الدّالّة على طُيُور البجع!

(ضغطهما) بأصبعَيْه. صاح الديك بشدّة:

- غِيطْ .. غِييطْ .. غِييطْ ...

ها نحن أمام فصيلة أخرى من فصيلة بَاغِجِي خصى الديكة!

لازم الشيخ خُمَّ دجاجه. يجمع البيض. يُطْعِمُ. يفضّ نزاعات الديكة. يفقس بيضة من حين لآخر، ويعب محتواها. يقف .. يجلس .. خادماً دواجنه بحسب تأويلاته لرغباتها!

غالبَهُ النوم. جرّ حصيراً قديماً تحت ظلّ الشجرة المجاورة لمسكنه، ونام. انتقلت عدوى النوم إلى جاسوس الدجاج المعلّق منذ الصبح. شخر. جاءت دوّامة غبار عنيفة. حرّكت الشجرة بسرعة. سقط الجاسوس فوق حصير الشيخ.

-١٥-

لا تنتظروا حديثاً عن الـ "Bébé" (الفاتن الصغير) أو عن فيلم "This is a baby doll" لإيليا كزان أو عن الديك الرومي الذي وظّفه إمير كوسطوريكا "Emir Kusturica" في فيلمه "زمن الغجر" .. إنه "بيبي" من إنتاج مغربيّ خالص! منتوج وطني صرف! ثروة وطنية!

يرمي له حبّة الذرَة، ويربطها بخيط غير مَرئي. ينتظر إلى أن تستقرّ الحبّة في حويصلة الديك الرومي. يجرّ الخيط بسرعة. يعيد رمي الحبّة مرّة أخرى .. ومرّة أخرى .. تتوالى المرّات .. يعيد الديك الرومي العملية نفسها. يبتلعها، وتُسحَب منه. يسيل منقاره دماً. يُشفق على نفسه من ساديّته، وعلى البيبي من مازوخيّته، فينصرف!

يرى في تلّ الغبار (البَدُّوزَة)(*) بِبيِّاً آخر، يطارد دجاجة في مقتبل العمر. شابّة. ممتلئة بالحيوية. عالية الحساسية. يُحكم قبضته عليها بعد أن راوغتْهُ مرّات، جعلتْه يرتطم ارتطامات مضحكة ببعض قِطَع الروث المتحجّرة. أطبق بمنقاره البليد على أعلى عنقها. غرس رأسها في الغبار. اعتلى ظهرها. بدأ يتحرّك يميناً ويساراً فوق ظهر الدجاجة محاولاً وضع شيئه في شيئها. بدأ دبيب النشوة يصعد إلى جمجمته، كما تُعلن أوداجه المحمرّة ذلك. تنسلّ

(*) مكان لتجميع فضلات البهائم: دِمْنَة أو مزبلة .. وهي كلمة أمازيغية (أبدُّوز) .. ويجمع الفلاح بهذا المكان فضلات الحيوانات غير بعيد عن مسكنه قَصْدَ تحويلها إلى سماد طبيعي لجنيناته ...

الدجاجة من تحته، كما تنسل الإبرة من إست المريض. يلبث جاثماً فوق تلّ الغبار. يحكّ شيئه بطريقة عجيبة على الغبار باحثاً عن شيء الدجاجة الفارة! يُصدر أصواتاً متنوّعة:

- بَرْبَرْبَرْبَرْبَرْ .. عَرْعَرْعَرْعَرْعَرْ .. قَجْقَجْقَجْقَجْقَجْقَجْ ...

في لحظة تفكير، عَدَّ نفسه من حاملي أعراض مرض نفسي خاصّ .. كارهي البِيبِي!

-١٦-

النفسي من التّنفّس. والتّنفّس يعني إخراج الهواء وإدخاله. انتبهوا معي: نُدخِل الهواء عبر الفم والأنف والمسامّ. ونُخرِجه عبرها طبعاً. ويضاف مخرج آخر!

عجيب هذا التّنفّس! نستنشق الهواء النقي دون رائحة ولا طعم ولا لون .. وننفث روائح متعدّدة ونكهات خاصّة جدّاً!

طبعاً، عندما تضيق شعيراته الهوائية في المكان القَصِيّ من الرئة .. كان يقصد مكاناً يستعيد فيه أنفاسه .. يحسّ تارة بأن شيئاً ما يضغط على حَنْجَرَتِه بعنف، وتارة أخرى بأن مرضاً يشبه الاختناق يتربّص به. يعتقد أن المكان به بركة ما تُنَفِّسُ عنه كرب نوبات الاختناق هاته.

يذهب إليه، ويتنفّس أنواع التّنفّس كلّها، ثمّ يعود ...

يقال بأن النَّفَس في "بوطاگاز"(*) وفي "الرَّابُوزْ"(**) وفي العجلات وفي قنّينات المشروبات الغازيّة .. والأنفاس تغزو كلّ شيء تقريباً!

في لحظة صفاء، عَدَّ نفسه من فصلية المتنفِّسين .. متعدّدي الأنفاس .. يمكن أن يستعين بأي "نَفَس"، كي يبقى حيّاً يتنفّس .. ولا تذوق نفسه الموت!

---

*) بوتقة الغاز.

**) المنفاخ (الكِير).

-١٧-

انسلّ متجاوزاً الحائط الفاصل بين الزنقة وبيت فاطمة. يظهر من حركات أصابعه وتمويهات جسده تردُّده المبدئي. عزم وسار على رؤوس أصابع رجلَيْه. خطوة خطوة. يراقب حركاتها وهي تغسل الأواني. اصطدمتْ رجلُه بشيء ما أحدث ضجيجاً خفيفاً. هزّتْ رأسها تجاه مصدر الصوت. التصق بالحائط. ظنّ أنها رأتْهُ. جعل عينه اليمنى في ثقب صغير بالحائط. ما الذي يرى؟ بدأ جسده يتفصّد عَرَقاً. صدر أبيض كحليب التين. نهدان بحجم الخوخ البلدي. تراجع بعض الشيء نحو الوراء. رفع عينَيْه نحو السقف. ظهر بياضهما الذي يشبه شحم نعجة سمينة. جعل عينه في الثقب مرّة ثانية. تراجع بسرعة. امتقع لونه. كلبان يهرولان تجاه مكان اختبائه. يكشّران عن أنْيَابٍ كالخناجر. لا شكّ أنهما أدركا رائحة غريب في البيت. إنه يعرف الكثير عن طبائع الكلاب. كَيَّفَ حركات رئتَيْه، كي تساير إيقاع خطواته الخفيفة المتراجعة نحو الخلف. أصبح دون وزن تقريباً! كاد أن يتحوّل إلى ما يشبه التمثال!

دخل الكلبان البيت. أصدرا صوتاً هجومياً:

- هَرْرْرْرْ .. هَوْهَوْ .. عَبْعَبْ ..

بدأ بإقناعهما بالتراجع:

- تُّو .. تُّو .. آخْ .. آخْ ...

خفّفا من نزعتهما العدوانية. دنا منهما. رَبَّتَ على ظهر أحدهما. دنا منه الآخر. عامله بالطريقة نفسها. انسحبا لاهثَيْن على التوالي، وكلّ واحد منهما يرفع ذيله مُحرّكاً إيّاه إعلاناً عن الألفة والتآلف.

رأى عشّ حمام بالبيت. استعان بأثافي موقد مهجور، كي يصل إليه. زاغتْ إحداها. لم يذكر شيئاً بعد ذلك!

-١٨-

كاد يفقد المتعة بالحياة نهائياً بعد أن سقط على بُنْصْمَة(*) موقد النار حين هَمَّ وهو الدائخ بالقبض على فرخ حمام، كان سيشويه لا محالة شواء مفارقاً!

لَفُّوا رأسه النازف بقطعة ثوب متينة. حملوه على وجه السرعة فوق ظهر دابّة شهباء، كان يمتطيها، وله فيها مآرب أخرى، إلى قرية الطْبَايْبِيَّة التي اشتهر الناس فيها بالتطبيب، كما يظهر من اسمها. طبطب أحد الطْبَايْبِيِّين على رأسه الذي أصبح وسط كُرَةِ قَرَعٍ (گَرْعَة)!

يطبطب الطبيب على رأسه:

- طَابْ طَابْ طَابْ ...

يغيّر الإيقاع:

- طَبْ طَبْ طَبْ ...

يزاوجه:

- طَبْ طَابْ .. طَبْ طَابْ .. طَبْ طَابْ ...

---

*) عجيب أمر القلب في اللغة ومحيّر فعلاً! بنصمة، كلمة من القاموس المغربي الدارج، وتعني المَنْصَب وهو أثفية موقد النار التقليدي المعروف بأثافيه الثلاثة.

ينتظر درجة الاستجابة من ناحية الرأس! حاول وحاول! طبطب وطبطب! بدأ يطبطب من ناحية أخرى!

- سَاطْ .. سَاطْ .. سَاطْ ...

يُغيّر الإيقاع وطريقة الطبطبة:

- طَسْ .. طَسْ .. طَسْ ...

يزاوجه:

- سَاطْ طَسْ .. سَاطْ طَسْ .. سَاطْ طَسْ ...

تسترجع الحياة نفسها في رأس المريض .. لكنْ، من ناحية بعيدة عن مسقط الرأس!

-١٩-

حين كان يدخل سينما "Armor" (آرمور) يفضّل الجلوس قرب المراحيض. لا يكتفي بالبصر والسمع .. يشمّ رائحة الأفلام أيضاً! من حين لآخر، يرمق ما يشبه الشبح يغسل شيئاً يشبه اللحم في المراحيض، ويضعه بمقادير مختلفة في حاويات من البلاستيك. كان يعتقد أن الأمر مُجرّد انعكاس للضوء على حيطان المرحاض. لم يكن يطيل التفكير في ذلك، لأن الرقص والغناء والمعارك .. تقطع عنه تتبُّع الفيلم الآخر المنعكس على حيطان السينما السوداء بفعل مسح الكَمَرَات والغائط على الجدران. لم يكن بمراحيض سينما آرمور مصابيح ضوئية. الضوء الوحيد هو ضوء السينما ذاتها. لا يأتي الناس للفرجة في سينما آرمور، بل يأتون لارتباطهم النفسي المرضي بما يقع فيها، ما يشبه الصَّرْع. ما يشبه المتعة. ما يشبه الجذبة. ما يشبه الشبه!

-٢٠-

سينما آرمور قاعة هُدمت اليوم بعد أن باعها الشاعر الوريث ومَنْ معه لأحد تجّار العقار. وقد حكى الحُورِي (شخصية خرافية عاش بجانب حيطان سينما آرمور) أن الممثّل الهندي الشاعر قد اقتنى هذه القاعة، وأطلق عليها اسم "آرمور" (Art mort)، ليعرض فيها أفلامه المابعد سيلانية (من السيولة السينمائية)، كي يُجرّب في مراحيضها لقطات سينمائية حقيقية، ويقارنها بأخرى واقعية دون أن يُدرك المتفرّج ذلك ...

كانت تضع بينه وبين الـ"Kama sutra" حاجباً!

تفتح السينما أبوابها قبيل العرض بخمس دقائق. يتسابق الناس ويتدافعون .. لم يثبت أن أحداً ميّز لون ما كان يشبه الكراسي .. لم يثبت أن متفرّجاً أدرك ما كان يجلس عليه .. لم يعرف الناس لماذا كانت لحظات الظلام تتخلّل العرض، إلى أن تأتي النهاية، ويخرج الناس في العتمة؟ يعانقون الخارج وكأنهم كانوا في معتقلات "طورابورا". روائح متعدّدة تتسرّب ممّا يشبه ملابسهم. يفرحون بالضوء. يطيلون البحلقة. يدبّ الجوع إلى بطونهم المتقلّصة. يتجوّق كثيرٌ منهم حول عربات بائعي ما يشبه السندويتشات.

-٢١-

يزدرد، إن ثبت أن ما يأكله يلبّي غرض الازدراد، ما وضعه أمامه من كَبَابٍ(*) وصُلْعَةٍ(**) فَيَتَجَرَّعُ(***) وكأن ذَوِيَّ قنبلة يدوية انفجر في بطنه، كما تنفجر القنابل في فم "طُومْ" أثناء صراعه الأزلي مع "جِيرِي"!

نهض متوجّهاً صوب ما يشبه المرحاض .. مكان مفتوح دون أبواب .. يجلس الناس فيه وأشياؤهم البادية للبصّاصين تتدلّى وتتهدّل .. وَجَّهَ ثقب مسدّسه صوب ثقب المبولة .. كانت تسديدته موفّقة. أدار عينيه وراءه، مع إحكام القبضة على زِرِّ المسدّس، كي لا يحدث له ما يحدث للجِمَال أثناء بولها! رمق شبح السينما يغسل لحماً داخل المبولة، ويرتّبه داخل حاويات بلاستيكية!

شعر بالغثيان وتقيّأ شاعرين دفعة واحدة!

حمل نفسه إلى الحانة المجاورة لسينما آرمور، كي يعقّم معدته وأمعاءَهُ!

---

*) عبارة عن لفائف مقطّعة من أمعاء المواشي، تزيدها رائحة الفرث لذّة!

**) قطعة كبيرة من معدة المواشي تُخَاطُ بشكل دائري بحجم الرأس الأصلع الأملس، وتُحْشَى بأصناف متعدّدة ممّا يشبه اللحم وملحقات بطون البهائم!

***) يتجشّأ.

-٢٢-

دخل من بوّابة الحانة وكلّ وساوس التّسمّم وأصوات الكلاب والقطط والحمير والبغال تتناغم في جمجمته. انتبه إلى الاختفاء المتوالي لجُلّها من شوارع المدينة. كان محيط عربات ما يشبه الأكل مملوءاً ببعضها. كان الباعة والزبائن أسخياء معها. كانوا يساهمون في تسمينها. ما أرخص الوجبة هنا، وما أسخى البائعين! اللحم المطحون و"الصُّلَع" والنقانق والكباب موجود بكمّيّات وافرة، وهناك زيادات لمَنْ لم يشبع، ومحفّزات للزبائن!

في الحانة يضع الناس أرجلهم على صناديق كاملة من البيرة. آخرون يشربون قنّينات الـ"٣/٤" كْرِيرُو(*) (مباشرة من فم القنّينة كما تُشرب الموناديا)! آخرون يضعون قنّينات داخل الأكياس التي تُوضَع فيها الحبوب. تخالها وهي مُحْكَمَةُ الغَرْزِ، مُتَرَاصَّةُ المحتوى، كِيسَ قوالبِ السّكّرِ الشهيرَ الذي كان يهديه الناس في الأعراس والحفلات والعزاء لبعضهم البعض ...

كرع إلى أن امتلأت ساحة طاولاته بالقنّينات الخضراء. يهزّ رأسه، فيتراءى له شبح السينما برأس القطّ .. الناس برؤوس البغال والحمير .. خضخض رأسه الذي أحسّ بثقله يتضاعف. لمسه مرّات عديدة. شكّ في شعره. شَعْرٌ أم شِعْرٌ؟! أهو ذاته أم الشاعر؟ شاعر السينما؟ أم الشاعر الوريث البائع المهدّم؟! أمسك رأسه بعنف. رأس تتعاظم ضخامته. أصدر صوتاً

*) كَرَّة واحدة.

قوياً، كي يتأكّد من صوته البشري. رأى مَنْ حوله: نهيق، صهيل، مواء، نباح ... رؤوس ضخمة تشرب. الأحمر والأخضر في كلّ مكان. هل يشرب؟ أم يرعى؟

- عُووووقْ .. مِيييييوْ .. حَنْحَنْحَنْحَنْحَنْحَنْ .. عَبْعَبْعَبْعَبْعَبْ ...

-٢٣-

تحكي أمّه الضريرة أن أباه كان يصاب بنوبة نوم عجيبة حين يصل إلى منطقة "زْنَادَة"(*) .. يصاحبها على متن العربة لزيارة أهلها بعد عيد الأضحى. كان البغل حين يتجاوز المنطقة يُصدر صوتاً عنيفاً من ثقبَي أنفيه مُكسِّراً بذلك دقّات صفائحه المرتطمة بإسفلت الطريق المعبّدة. يستيقظ الأب بعد تلك الإشارة من نومه المصطنع .. تَوَارُدُ خواطر عجيب بينه وبين البغل! كان يملك بالمنطقة قطعاً أرضية، لا يريد أن يفصح عن سرّ بَيْعه لها!

هل باعها بالفعل؟ أم أن أحداً ما سطا عليها؟ لماذا يُنكر؟ لو صرفها على الشيخات، فلا بأس .. المهمّ أنه قضى لحظات جميلة لن تتكرّر، وما عاد العمر يُسعفه، كي يعيدها. هل كرعها كؤوساً حمراء وخضراء وحزم مقابل ثمنها قنّينات داخل الأكياس؟ هل باعها في لحظة عربدة وجنون؟

المهمّ أنه صرف من ماله الخاصّ، في زمن عَزَّت فيه مثل هذه الشيمة!

لا شيء يُفسّر عدم قدرته على فتح عينَيْه بتلك المنطقة التي تساوي ذهباً الآن! ولا أحد استطاع فَهْم أو تفسير سلوكه ذلك!

---

*) إحدى ضواحي مدينة قلعة السراغنة المغربية.

-٢٤-

هناك أشخاص، كُثُرٌ، في هذه البقعة من الكون، يصعب تصنيف سلوكهم وطبائعهم .. ما إن تطمئنّ لمدنيّتهم حتّى ينقلبون .. ما إن تنلْ منكَ طيبوبة بداوتهم حتّى يتراجعون .. لا هم بالمؤمنين، ولا هم بالكفّار .. ما هم بالمسلمين، ولا بالبوذيين، ولا بالمسيحيّيْنْ، ولا باليهود، ولا بالهندوس .. لا هم علمانيون، ولا هم مُلحدون، ولا هم لادينيون .. لا هم فلاسفة ولا أبالسة .. لا هم يستحمّون ولا هم يُغيِّرون ملابسهم .. ينامون أينما باغتهم العياء. يتبوّلون ويتغوّطون قرب منامهم. يتبوّلون مشاة. يقضون حاجتهم وينهضون. يَحُكُّونَ مؤخّراتهم بأصابعهم، ويأكلون!

يدسُّون أشياءهم حين تنتفخ في ثقب أيّ كائن حيّ متاح!

يلبسون ثياباً خشنة كَرْطِيطَة. ينكشف سواد عوراتهم حين ينكفئون. مالهم كثير. صراعهم دائم. جوعى أبداً. يُغيّرون مهنهم بسرعة فائقة. يشتغلون في كلّ شيء. يبيعون مسحوق الغائط اليابس، لو كان رائجاً، ولا يتردّدون في شربه، لو نصحوهم به تجنّباً للموت!

فصيلة عجيبة .. فصيلة الكَرَاطِيطِ هاته!

-٢٥-

حين أعلنت السلطة استبدال الأوراق النقدية القديمة بإخرى جديدة، ملأت الحمير والعربات والبغال شوارع المدينة (؟). گَرَاطِيطٌ وبؤساءٌ وشبهُ عراة يحرسون أموالاً طائلة يشحنونها في العربات، وعلى ظهور البهائم!

لماذا لم يضعوها في البنك؟ لماذا لم يستثمروها؟ لماذا لا يتمتّعون بها؟ منذ متى وهم يُكدّسونها؟ أين كانوا يُخزّنونها؟

الآن يمكن أن نعرف لماذا يُطلق الگَرَاطِيط على الأموال "خَنْزُ الدنيا"؟! كانوا يخزّنونها حتّى ينال منها الخَنْزُ مناله!

طوابير من البشر والبهائم أمام مكتب القرض الفلاحي. لا مجال لمَنْع الدّوابّ من الوقوف بساحة المسيرة الأنيقة، مفخرة مدينة الگَرَاطِيط. روائح بول البهائم وروثها وعَرَقُ الگَرَاطِيطِ يملأ الأجواء. يحرس كلّ واحد منهم مدخراته بكلّ استماتة، والويل كلّ الويل لمَنْ اقترب. فصيلة الگَرَاطِيطِ متضامنة. تقتل السارق حين يقوده القَدَر إلى مساحاتها. كلّ واحد يضرب بما احتوتْ يداه. من عادة الگَرَاطِيطِ حمل عصا وآلة حادَّة أثناء مغادرة أمكنتهم المألوفة.

امتلأت الخزائن، وانتهى رصيد القرض الفلاحي من الأوراق الجديدة التي أتى بها. قرّر مديره مخاطباً طوابير الگَرَاطِيطِ أن يُسلّم كلّ واحد منهم

وصلاً مقابل ما لديه من مال، كي يُدلي به في اليوم الموالي، ويتسلم مقابل ذلك قيمته من الأوراق الجديدة. رفض الكَرَاطِيطِ مقترحه العقلاني، وقرّروا المكوث بالساحة إلى حين وصول الأموال.

يُغمغم أحدهم:

- بْغَاوْ يْقَوْلْبُونَا .. لَقْلاَوِي!

هكذا يتكلّم الكَرَاطِيط في أحاديثهم العادية والحميمية. الأب أمام الابن. الأمّ أمام البنت. في حضرة الضيوف. داخل الأسرة .. حشمة من نوع خاصّ لدى فصيلة الكَرَاطِيطِ!

-٢٦-

كان أحد الگَرَاطِيطِ قد لسعتْهُ عقرب من فصيلة " Androctonus crassicauda " السوداء الشرسة في مؤخّرته حين جلس على صخرة ساخنة. ثوبه الگَرْطِيطِ لا يُسعفه كي يضع بعضاً منه حاجزاً بين عجيرته والصخرة. تشمَّمَت العقرب رائحة إسته النتنة، فخرجتْ، علَّها تظفر بشيء ما، يمكن أن تقتاته. العقارب تسكن الأزبال!

أحسّ بشيء ما يُحرِّك شَعْره المتدلّي. زحزح مؤخّرته بعض الشيء، فإذا به يضغط على جزء من العقرب التي غرزت شوكتها في ثقب دُبْره فوراً.

لا شيء يخيف الگَرَاطِيطِ(*) وحده الموت يجعلهم يقدّمون ما ملكتْ أيمانهم قَصْدَ النجاة! قَصَدَ مسرعاً بَيْتَ "المَصَّاصْ" وسترته الگَرْطِيطَة(**) تتطاير. لا أحد سواه سينقذه من موت مُحقَّق. يسود اعتقاد لدى فصيلة الگَرَاطِيطِ بأن القلب قريب من مؤخّراتهم! حكى له مَصابه والدمعة تترقرق في عينَيْه خوفاً من الموت. ارتمى على رجلَيْه، كي يقبل مَصّ السّمّ من ثقب مخرجه. أحنى المَصَّاص بصره، فإذا بشعر المؤخّرة الأشعث يتناثر

---

*) القِرْطِيط؛ والقِرْطِيطُ: العَجَب. ابن سيده: والقُرطان والقُرْطاط والقِرْطاطُ والقِرْطِيط: الداهية؛ قال أبو غالب المعنى: سألناهُمُ أن يُرْفِدُونا، فأَخْبَلوا، وجاءَتْ بِقِرْطِيطٍ من الأَمر زَيْنَبُ، والقِرْطِيط: الشيء اليسير ...

**) لا أقصد أيّ شيء ممّا سبق، فالگرطيط في اللغة المغربية يشير إلى الشيء القصير، وله دلالات ساخرة تتغيّر بحسب مواضع الكلام ومواضيعه.

كما يتناثر النبات البرّيّ في السَّفَانَا! تصوّر الاثنان سريالية الموقف! اشترط المَصَّاص على الكَرْطِيطِ أن يغسل جيّداً .. أن يحلق إسته .. أن يحفظ سرّه .. وأن يدفع مبلغاً محترماً جرّاء ما سيلحقه من أذى، وكتماناً لسرِّهِ بين فصيلة الكَرَاطِيطِ!

قَبِلَ ذلك كلّه مُرغَماً .. الموت يتهدّده والأموال مكدّسة! رفض المَصَّاص مُبَاشَرَةَ عمله إلا بعد تلبية شروطه كلّها عن آخرها. أسرع الملسوع في القيام بذلك.

وضع الكَرْطِيطُ رأسَهُ بين يَدَيْه، وأثنى ركبَتَيْه، وجعل إسته يصعد نحو فم المَصَّاص. غالب الضحكُ المَصَّاص. منظر مؤخّرته التي حلق زغبها أو نَتَفَهُ بسرعة قياسية يشبه بطن جدي جَزَّهُ مالكه الهاوي: ضربة مقصّ في الجِلْد وأخرى في الشَّعْر! دم يسيل. رائحة تفوح. ما يشبه لوحة سوريالية لرسّام مبتدئ! صورة تشبه ملصق فيلم "Le charme discret de la bourgeoisie" (سِحْر البورجوازية الخفيّ)!

تذكّر المَصَّاص المبلغَ المهمّ الذي استقرّ في قعر جيبه. ذبح المكان الذي حدّده الكَرْطِيطُ ذبحات خفيفة، بشفرة حلاقة شبيهة بتلك التي استعملها لويس بونويل في فيلمه "الكلب الأندلسي" .. قطع الأنفاس، وجعل فمه في العمق الاستراتيجي للمنطقة المتضرّرة. يمصّ ويمصّ. يقذف ويقذف. يمصّ ويقذف .. يقذف ويمصّ ...

- فْ .. ثْفُو .. فْ .. ثْفُو .. فْ.. ثْفُو ...

داهمه الغثيان:

- بُوعْ .. گُوعْ .. بُوعْ .. گُوعْ ...

-٢٧-

في مثل هذه الحالات، يذهب أناس آخرون عند "العَرَّامْ" وهو فقيه طبعاً، يحكّ المكان الملسوع من الجسم بقطعة من الملح الحيّ، ويناوب ذلك عبر تَبْلِيلِهَا بشيء من لعابه، ومسارعة الحَكّ مع قراءة تشبه في إيقاعها تلاوة القرآن على الطريقة المغربية في الكتاتيب التقليدية، لكنْ، مع إدْغَامٍ لا يستطيع المستمع تمييزه نظراً للقراءة الهامسة التي يحرص عليها.

وبما أن صاحبنا الملسوع من فصيلة الگَرَاطِيطِ ذات الذكاء الحادّ، فقد فضّل الذهاب إلى "المَصَّاص" عوض "العَرَّام"، كي لا يتسلّى بمؤخّرته. المسألة فيها لعاب وحَكّ وكشف للعورة! من الأفضل تجنُّبه مخافة أن يضرب له "الطَّرَّ"(*) بين الأعداء. لا يمكن الوثوق بالفقهاء في مثل تلك المواقف! وفصيلة الگَرَاطِيطِ متصارعة دوماً رغم علاقاتها الدموية العنكبوتية! لا يُوحّدها إلا الخطر الذي يُهدّدها كُلّيّاً!

*) آلة موسيقية من آلات الطرب الأندلسي .. وهي لا تعني هنا دلالتها الأصلية.

-٢٨-

دأب الكَرَاطِيط، نساء ورجالاً، على نَتْف شَعْر عاناتهم وآباطهم، كما تُنْتَفُ الديكة بعد الذَّبْح! وهناك مَنْ يقطعه بالمنجل عندما يطول، كما يُحْصَدُ الزرع بعد نضجه!

وهذا سرّ ما يُفسّر تناثر الشَّعْر العالق بأغصان أشجار السِّدْر والطلح!

يلجأ المراهقون من فصيلة الكَرَاطِيطِ إلى التباهي بتطويل شَعْرهم غير المكشوف عبر طُرُق عجيبة عديدة. يَحُكُّونَ على جذوره الفراشات مباشرة بعد اصطيادها. يطلونها بدم طائر "الشرقراق". يغسلونها ببول الأتان. يدعكونها بمستحلب شجر التين .. يلتصق الزغب البرّيّ المتوحّش ببعضه البعض. تتورّم منابته وتحمرّ. تفوح منه الروائح بفعل التّعفّن. يمشي المصابون بالتّقرّح أو التّعفّن من فصيلة الكَرَاطِيطِ رافعين أيديهم وكأن مُخبراً يُهدِّدهم بالقتل في فيلم بوليسي! وهناك السائرون منهم بأرجل متفرّقة، وكأنهم عبيد مُكبّلون زمن النخاسة البئيس!

عجيب حال هذه الفصيلة .. فصيلة قاتلي الفراشات!

أمّا فصيلة مستعملي بصل العنصل الذي ينفخ الأجزاء الحسّاسة من الجسد، فلهم فيه مآرب تغليظ وتطويل العصب الأقوى أسفل بطونهم الملتصقة على أضلعهم، كمرضى الفاقة الغذائية! يَحُكُّونَهُ على بضاعتهم

.. يسري المفعول .. يشتعل الحريق في المحرّك .. وحين تكاد أجزاؤه تنفجر .. تَجِدُهُم يسكبون الماء على ما سخن، أو يضعون الشيء الساخن في إناء ماء، كما يضع الحدّاد قِطَعَ الحديد الساخن في الماء البارد!

- فُوفْ .. تُوشْ .. آحْ ...

لا شيء يهمّ الكَرَاطِيطِ.. المهمّ طول الشَّعْر ونضج فواكه الغابة!

-٢٩-

يلمس الأب شَعْر ابنه، ولا يتمنّى أن يكون من فصيلة الكَرَاطِيط. يفكّر في الرحيل عنهم في أقرب فرصة ممكنة. رفع رأسه إلى السماء المقمرة التي تتلألأ نجومها في الأعالي منيرة وجوه بنات القرية الساهرات الراقصات. يغنّينَ عروبيّاتهنّ(*) بشكل كورالّي منسجم.

يتتبّع الأب حركات ابنه وهو يقرأ في كتاب وضعه أمامه. يتذكّر يوم ختانه الذي كاد أن يتحوّل إلى مأتم! نام الصبي في صندوق خشبيّ، اعتاد اللعب فيه. كانت أمّه تضعه فيه، كي تتفرّغ لقضاء شؤون البيت. أَلِفَهُ .. من حين لآخر، يتسلّى بالنوم فيه.

حضر الحَجَّام، وهو رجل متعدّد المهامّ، يمارس الختان، يخلع الأسنان، ويمصّ الدم (الحِجَامَة)، ويحلق الرؤوس واللحي .. اصطفّ الفقهاء يُرتّلون ويأكلون يَنِمُّون ...

تبحث الأمّ، وتبكي. بدأت شكوك الأب تتسرّب إلى الأعداء. المُقرّبون فقط يعلمون ما وَقَعَ! النساء يُردّدنَ أُغنيَّة:

أَحَجَّامْ أَحَجَّامْ.. حَاوَلْ عْلِيَّ يَرْحَمْ بُوكْ

---

*) نوع من الرباعيات/الخماسيات الشِّعْرية، تتغنّى بها النساء .. ويمكن مقارنة "العروبي" بالموال والليالي اللذَيْن يعتمدان مبدأ الارتجال في الغناء.

أَحَجَّامْ أَحَجَّامْ.. عَارْ اوْلَيْدِي بَيْنْ يِدِيكْ

انتهت الأُغنيّة، ولم يتمّ تقديم الولد للحَجَّام الذي انتهى من الأكل، ووضع أدواته البسيطة أمامه منتظراً قدوم الصبيّ.

الحَجَّام، وما أدراك ما الحَجَّام؟!

هناك مَنْ قَطَعَ الحَجَّامُ كَمَرَةَ قضيبه .. وهناك مَنْ قَطَعَ قُلْفَتَهُ .. وهناك مَنْ ترك شيئاً منها طائشاً .. وهناك مَنْ قَتَلَهُ الحَجَّام!

خرج الصبيّ متدحرجاً من الصندوق، وكأنه شيء من محتويات علبة الصفريوي العجيبة "La boite à merveilles". أمسك بكأس شاي، وغطس فيه فَاهُ. بدا جزء من أنفه وبعض أسنانه وقطعة من لسانه وشفته العليا مكبّرة عبر قاع الكأس!

-٣٠-

استقرّ الصبيّ في قعر الطبق، كما يستقرّ المشمش في فم أدرد! أمسك به جارهم. أخذه إلى الحجَّام. مَرَّرَ يَدَيْه من تحت ركبَتَيْه. أسند ظهر الطفل إلى صدره. أحكم قبضته عليه. قدّمه كالقربان للحجَّام بعد أن خضع لطقوس الزينة والاغتسال والتلبيس كلّها .. وضعه في طبق مليء بفضلات النعاج! يقال إن الحجَّام يستعين بواحدة منها، حسب المقاس، كي يضعها حاجزاً بين القُلْفَة والمقصّ! يقيس بها حجم اللحم الذي سيطاله مقصُّه!

"يفركل" الطفل بقوّة. تتسرّب كويرة من الفضلات إلى مؤخّرته. تتحرّك قواه الدفاعية الطبيعية لطَرْدها. يضرط، ويقذفها كما تنقذف الرصاصة من المسدّس. تشغل كويرة أخرى مكانها. الطبيعة تكره الفراغ. تحرّكتْ أمعاؤه من روع الضغط والمقاومة .. سال محتواها. اختلطت الفضلات!

عويل ونحيب .. غناء ورقص .. أكل وشراب .. حَرٌّ وعَرَق .. بول وغائط .. مَرَق وكُسْكُس .. شاي وقهوة .. أنفاس وفُسَاء ...

ارتاح الأب بعد أن انتهى الحجَّام من عمله. انقطع نحيبُ الأمّ بمُجرّد سكوت طفلها. نهض الأب مبتسماً وكأنه يلقي نظرة الوداع على مَدعوِّيه.

-٣١-

كان كلّما سأل ابنه عن حصيلة يومه من التحصيل الدراسي يُفاجِئه الطفل بحيلة جديدة من زبانية المعلّمين:

أتى سي نجيب متأخّراً، فتناول فطوره وارتاح.

أدخل سي سليمان تلاميذ فصله، وعاد إلى حقله.

التحقت المعلّمة سعاد بفصل سي حليم، وطال حديثهما.

جلب سي ميلود ملابسه الرياضية، ومارس رياضة الجري المفضّلة لديه بين أشجار المدرسة، شرب الحليب البارد الذي نجلبه له، غسل من بئر المدرسة، واستراح ...

كان ذلك أكبر شيء يؤلمه، ويجعل الدم يغلي في عروقه. كلّ مرّة يفكّر في ارتكاب حماقة كبرى. يتذكّر مستقبل ابنه، فيُغيّر طريقة التفكير.

-٣٢-

ودّع الثلاثة بعض الجيران الفضوليّيْن الذين تحلّقوا حول العربة بعد أن استقرّتْ أمتعتهم كلّها بها. تبتعد القرية. يبتعد الثلاثة. سكوت مطبق يسيطر عليهم. فَضَّلَ الأب التضحية بأعزّ قطعة أرض إلى نفسه. فكّر في تدريس ابنه، واقتناء مسكن في المدينة. منذ أن رحل صديقه إلى مراكش، والفكرة تراوده، لكن أمّه كانت ترفض ذلك بجنون مشهود. كانت تردّد:

لا يمكن أن أنام هناك. تلك الأقفاص الإسمنتية تخنقني. لا أتصوّر نفسي ضمن طابور الواقفين بانتظار المرحاض!

تبتعد القرية، وتتلاشى معها علاقات الأمّ المتجذّرة كلّها. مع مَنْ ستتواصل هناك؟ كيف ستتواصل معهم؟

يفكّر الأب في مستقبل ابنه. يرغب في أن تقطع زوجته الصلة بعاداتها السابقة. يريدها أن تتأقلم .. وهو متأكّد من ذلك. القرية لا تبعد إلا ببعض الكيلومترات عن المدينة. يمكنه مراقبة حقوله يومياً، إن أراد، ويمكنه إكراؤها أيضاً. من الممكن جدّاً أن يشتغل أو يتاجر.

-٣٣-

يرتّب الأب وزوجته حاجيّاتهم بِغُرَفِ منزل جديد.

الجوّ مكفهرّ. ضباب كثيف داكن اللون. ظلام شديد لا يكسر حلكته إلا ضوء البرق الذي يجعل الناس يتأهّبون لاستقبال سلسلة من دَويّ الرعد الشبيه بالمفرقعات التي تخترق جدار الصوت.

كلّ شيء يُؤذِن بأن واقعة رهيبة على وشك الوقوع.

حالة استثناء تُعلنها الطبيعة على القوم.

الجزء الثالث

-١-

أدركه الصباح، استيقظ مهرولاً بطريقة تشبه الشاة العرجاء، يجرجر إسته نحو أقرب مخبأ كالثعبان الفارّ من نسر يداهمه بشكل صاروخيّ .. أصوات تشبه المفرقعات تتوالى تحت المخبأ الشوكي، رائحة كريهة تملأ الفضاء. يجلس بين عصي سوداء مختلفة الأحجام. ينبش في الأرض بعود، التقطه من الأرض، يخطّ وينبش في محتويات "العصي السوداء المتصلّبة". يُسْمَعُ صوته من حين لآخر:

أهْ .. أهْــهْ ...

دنا بعض الدجاج من مكان "الطَّحِير"(*)، اختلطت القوقأة بالزَّحِير .. هَزَّ رأسه يتفقّد ما حوله، طوّق الدجاج عجيزَتَهُ، نقرة من هنا، وأخرى من هناك .. فَتَّتَ الدجاج العصي وهي تتدلّى من ثقب الكرطيط قبل أن تصلَ إلى الأرض! فجأة، رفع الدجاج رؤوسه وهو يُصدر نقنقات غريبة:

قُوقْ .. قُوقْ قُوقْ .. قُوقْ ...

رفع الكرطيط بصره: ثلاثة قنافذ تنسلّ متتابعة، وكأنها تفرّ من خطر يتهدّد حياتها، أشواكها نافرة، يحمل واحدا منها، على ظهره، عصا سوداء، تتجاوز طوله، تماماً كما تحمل الدّابّة جذع شجرة!

---

*) مفردة دارجة تفيد الصوت الصادر عن حامل الأثقال ...

سارع الدجاج إلى نقر ما يوجد على ظهر القنفذ .. تكوّم القنفذ منكمشاً حول نفسه ...

نهض الگرطيط ملاحقاً القنافذ ...

تظهر ملامح عصا سوداء ما تزال عالقة بمؤخّرته ...

قفز ديك أسود ينقر العصا السوداء القادمة ببطء نحو الأرض ...

ابتعد أحد القنافذ، فأوشك أن يلج جحراً شبه مغطّى بالعصي السوداء اليابسة، جرى الگرطيط تجاهه، سقط كما تسقط البهيمة المنحورة، تحوّل ما يشبه السروال الذي يرتديه إلى عقال محكم حول رجلَيْه .. سقط وجهه على ظهر القنفذ الهارب .. تناثرت العصي السوداء من حوله فيما يشبه لوحة سريالية، يطغى السوادُ على بلاغتها اللونية، وتعمّها مخروطات تشبه العصي السوداء!

-٢-

بينما يتجوّل الابن في المقبرة، كي يُروّح عن نفسه، ويهرب من جحيم البصّاصين القابعين تحت أغطية "Les bâches" المقاهي المتآكلة الكراسي، المحطّمة الموائد، المتّسخة الجدران، التي تنسج في أركانها العناكب أعشاشاً شبيهة بتلك التي تظهر في بعض أركان مبنى الكوليزيوم الإيطالي، وكأنها تعود إلى العصر الروماني العنكبي .. خرج رجل مشروم الأنف من إحدى القبور .. فَرَّ الابن مذعوراً باتّجاه جماعة من الناس، كلّما اقترب منهم، يراهم قد ابتعدوا، لا شيء يقف أمامه .. يدوس الأشواك، شارات القبور، شجيرات المقبرة .. فجأة، هوت رجله في حفرة، فاستقر في قلب قبر مَنسي، قطع الأنفاس رغم سرعة تدفّق دمه داخل بدنه، أصبح يتنفّس عبر مسامّه كضفدع تحت الماء .. بقي يترقّب الأصوات، كما يترقّب العنكبوت فريسته .. مَرَّ وقت طويل وهو على هذه الحال. شيء ما يتحرّك أسفل ظهره .. قفز مرعوباً خارج القبر.. مسح المقبرة بعينيه في لمح البصر .. لم ينتبه إلى ندوبه وجروحه وسوائله المنبلجة من الثقوب والتجاعيد كلّها .. خرج على عجل من المقبرة دون أن يفكّر في اختصار الطريق .. وصل إلى وسط المدينة التي لا تبعد عن المقبرة بمسافة كبيرة، فمدينة الكراطيط ذات شارع واحد، يقود إلى كلّ ما يسمّونه مرافق!

انتبه إلى نظرات الناس المتعجّبة والمشفقة .. اعترضه رجل المقبرة:

- صداقة على سيدي ربي ...

داس من حوله، وفرّ دون أن يلتفت .. سوائل ترسم طريق فراره!

-٣-

بدأت الأمّ تصلّي .. قرأتْ وَرَتَّلَتْ أشياء لا تعرفها إلا هي .. تَقْلِب السُّوَر والآيات بشكل لا يترك للمستمع فرصة التّحكّم في أنغام قهقهاته .. انفجر الابن ضحكاً .. حاول أن يُصحّح ذلك مراراً .. تُصرّ الأمّ على طريقتها. لكلٍّ صلاته، الله يعرف اللغات كلّها. الله يسمع الناس كلّهم. الله يرى الناس كلّهم. تجعل الله في كلّ شيء ...

هذه حججها .. تسردها وهي تَخْزِر ابنها قاصدةً جهةَ انبعاث صوته.

يشبه وجهها، وهي متخشّعة، وجه Lee Van Cleef الشبيه ببورتريه فان گوگ في لقطة كبيرة دون أُذْنٍ.

حين تحسّ بضَيم أو يصيبها أذى، تتحاور أثناء الصلاة مع إلهها، بشكل يتشابه مع حديثها مع ابنها:

- يا سِيدِي رَبِّي .. آشْ دَرْتْ أنا .. وَلْدْ البَرْقَالْ جَا بَاشْ يَدِّي لوليدي ابْهَيْمَتُو .. يَاكْ انْتَ كَتْشُوفْ .. إيوَا خُوذْ الحَقْ .. اوْلَيْدِي رَاهْ كَيْشُوفْ فِيكْ ...

تُنهي حديثها هذا، وهو جزء من ركعة، جاء مباشرة بعد قراءة فاتحتها الخاصّة، بطريقتها الخاصّة، بنبرتها الخاصّة ...

تركع مدّة طويلة، إلى درجة يحسب ابنها أنها أُصيبت بسكتة قلبية مفاجئة. تهزّ رأسها آمرة ابنها:

- رِاهْ القَهْوَة سَلاَتْ أوْلَيْدِي .. سِيرْ جِيبْهَا الله يَرْضِي عْلِيكْ ...

ينهض ابنها، فتندمج من جديد في صلاتها الخاصّة قائلة بنبرة حادّة صارمة:

- الله أكبر ...

-٤-

لاحظ مهندس المجلس البلدي بأن كمّيّات كبيرة من سور مدينة الگراطيط يتلاشى يوماً بعد يوم، ضاعتْ أبوابها، خربتْ مآثرها، انهار بنيان أجمل صرح يتوسّطها، نُهبتْ نوافذها ومزاليجها ونواقيسها، وتلاشت عَرَاصِيهَا .. صارت جُنَيْنَاتُهَا مَرعى لقطعان الماعز المنتوف والغنم المتَّسخ والبقر النافر والبشر الشريد .. بقيت جذوع زيتونها الميّت المنتصب هنا وهناك كأير المختون الراشد، أو كأير منحوت، في شارع فسيح، يحتكّ به السّيّاح!

لا يمكن التّنبّؤ بما يقع إلا بزرع عناصر المردة في الأماكن المتضرّرة .. انتشر هؤلاء كما يكتسح الجرادُ الحقولَ ...

لم يقع أيّ شيء إلى حدود منتصف الليل .. انسحب المردة بعد ضبط حال أسوار المدينة ... مَرَّ مهندس المجلس البلدي من جديد، فراعه منظر السُّور الذي يتآكل يوماً بعد يوم .. أخذ عيّنة منه إلى مختبره .. قارن إيّاها بمحتويات حيطان البيوت المجاورة .. أمر بإعادة انتشار المردة بشكل يشبه تخفّي الجنود في الغابة .. اندمج هؤلاء كما يتماهى الماء مع الثلج ...

بدأت عمليات التّسلّل نحو الأسوار، أسراب من البشر تحمل التراب كما يحمل النمل مدخراته!

خلص تقرير المهندس إلى إدانة الگراطيط، وتغريمهم مصاريف إعادة البناء .. تغافل عن تعرّض الحائط الأثري الواقع بين منزلَيْن إلى نبش مزدوج، إلى درجة تهاوى فيها، رغم سمكه الجليّ، على النَّبَّاشِين ...

دَكَّ إحدى أهمّ فصائل النبش .. عشّاق النبش الليلي ...

مخلوقات خُفَّاشِيَّة الجِينَات ...

لم يعثرْ رجال الإنقاذ على حطامها وعلبها السوداء!

-٥-

تساءل الگرطيط في قرارة نفسه: لماذا لا أستفيد من تدفّق الليبيدو عبر شاشَتَي الصغيرة كبقية البشر؟ فكّر في الأمر، غارتْ مآقيه في جمجمته، لم ينتبهْ إلى سبابته التي اقتحمت العمق الاستراتيجي لثقب أنفه الأيمن، يده اليسرى تحتضن بيضه الشبيه ببيض الدجاج الرومي .. ذلك كلّه من أجل البحث عن فكرة، تنهي حرمانه من تدفّق الصور السَّيَّالَة على شاشته السوداء البيضاء .. لا تهمّه الألوان في هذا المقام، لا لون للمتعة، الغاية كالحلم، نتذكّره أو لا نتذكّره إلا بعد انصرام لحظة الجنون الممتع!

لمح سروال أبيه المعلّق كَمِظَلِّيٍّ في الهواء .. سروال يستحوذ على الأعضاء السفلية كلّها، ويسجنها في الشساعة .. فطن إلى فكرة جلب الهوى بواسطة هذا السروال .. علّقه فوق هوائية التلفاز .. نزل بسرعة، كي يرى النتيجة على الشاشة: فتاة بلقاء ترمي سروالها بغنج على عدسة الكاميرا!

-٦-

باغتَهُ موكب العرس المتقدّم نحو ما يُسمّيه منزلاً .. أنغام "العيطة" داوية .. كان يقوم بما يُسمّيه تصبين ثيابه .. عارياً في جنينته .. تنعكس الشمس الحارقة على جِلْده الدسم كرقعة زيت السّيّارة المحروق .. من عادة الگراطيط ألا يستبدلوا ثيابهم إلا إذا صار لون الوسخ لونها .. عندما "ينظّفونها" تترسّخ الألوان وكأن رسّاماً تشكيلياً أضاف إلى ألوانه مادّة كيماوية مُرَسِّخَة .. إسته يُصوِّر الشمس كمنظار فلكي متهرّئ .. مَحَاشِمُه(*) تغازل الريح الشرقية الساخنة.

داهمتْهُ نغمات العيطة، كما تداهم رائحة الزيت فأر المائدة .. لبس برنوسه، لأن ملابسه مبلّلة كلّها .. أقول (كلّها)! لكنها تُعبّر، كُلّيّاً، عمّا يُسمّيه سروالاً وقميصاً رغم أن الأسماء لا تناسب تلك الأشياء في هذا المقام!

فَتَنَتْهُ العيطة، فانسجم واندمج مع روح الموسيقى .. أخذه "الحال" على حين غرّة ... رمى برنوسه، وبقي يرقص .. فرّت الفتيات والنساء .. هرب الناس متأفّفين .. سكتت الفرقة .. انفرط الجمع .. انتبه إلى "حاله" وسط الغبار: ما يشبه تصوير لقطة سينمائية، بواسطة الدخان الاصطناعي!

---

*) مفردة دارجة تعني الخُصْيَتَيْن ...

-٧-

بدأ الطفل يُحدِّث أباه أثناء الأكل. لا يستطيع التّحكّم في نطقه من شدّة اختلاط المضغ بالكلام في فمه. حدَّثَه الأب قائلاً:

كانت أمّي تقول: الفم المملوء لا يتكلّم!

وتروي عن أبي قوله: اللِّي يَاكُلْ مَا يَتْكَلَّمْ!

استمرّ الولد في اللغو .. يخزره الأب بحنق .. أدار عينَيْه في جمجمته، أمسك قشرة "فاكهة" التين الشوكي التي كانت بجانبه، وَجَّهَ جزءها العلوي، وحَكَّ به فم الطفل، كما تُحَكُّ الأواني أثناء التنظيف .. نهض الابن بسرعة باكياً، لم يستطع وضع شَفَتَيْه على بعضهما البعض ...

في الصباح، كان منظر الفم مُتقيّحاً تشبه صفرته زهرة الموريلا الطفيلية التي غزتْ قريته منذ زمن ...

منذ ذاك الحين والكلام عنده شبيه بتقيّح الشفاه؛ بل أصبح لا يستطيع مَصَّ الشفاه، وإطالة النظر إليهما .. يتخيّل شَفَتَيْه "كرموستَيْن"(*) محمرَّتَيْنْ .. كَرِهَ التين الشوكي وما يشبهه .. كَرِهَ نيتشه لأن في اسمه حرف الشين الدّالّ على النَّتْش والهَبْش والنَّبْش!

---

*) مثنّى لمفردة "كرموسة" التي تعني فاكهة التين أو الصّبّار في الدارجة المغربية .. ويتفكّه بها الگراطيط حينما يقولون: "كَرُّ موسى" .. ويفيد "الكَرُّ" في الدارجة العجيزة ...

الفم الذي لا يجيد الأكل .. لا يصمت أثناءه .. لا يجيد التقبيل، ولا أيّ شيء من مشتقّاته .. بل، قد يفسد حليب الشوكولاته!

-٨-

كلّ شيء يبدأ بالشين في الأوّل أو الوسط أو الأخير أو على الجوانب حتّى .. إلى الجحيم، إلى المنحدر، يا شين، سيّداً كنتَ أم أَمَةً! أكرهكَ كُرْهَ السندباد للاستقرار .. كُرْهَ العاهرة للجنس واللَّحْس والمَصّ .. كُرْهَ العبد للحُرّيّة!

كم أراد أن يقاطع هذا الحرف منذ أن توغّل محلول "الشاي" في أحشاء أمّه قبل أن تفقد بصرها. كانت جميلة وذات رقصة جذّابة. يأتي الناس إلى العرس، كي يسكروا بالتواءاتها المتّسقة، الساق على الساق في نفس السياق، لا ساق إلا ساقها، لا التفاف إلا التفافها .. كانت ترقص رقصة وحيدة، فريدة، وينتهي الأمر .. تآمرت نساء القرية، بدافع من أحد الگراطيط طبعاً، على وضع بعض من حشائش شمائل المغرب الغالية في إبريق الشاي .. شربت الأمّ الكأس الأولى، فالثانية، فالثالثة .. فالعاشرة .. ورقصت الرقصة الثالثة .. فالسابعة .. فالتاسعة .. سقطت السقطة الرابعة، فالخامسة .. حملوها في الثامنة ...

منذ ذاك الحين لم تعد راقصة .. ولم تعد تثقْ في الشاي .. أنست صوت الناي في منزلها .. تتمايل في مكانها .. كرهت حرف الشين اللئيم!

زهدتْ في الرجال منذ راح الغالي، لم تعد ترغب في السقوط، ولو مرّة واحدة، صريعة حرف الشين!

-٩-

يُحكى أن الناس في قرية/مدينة الگراطيط لا يداعبون. حركات ميكانيكية محسوبة، ويبدأ الشهيق والزفير. تذهب أصابع اليد الثلاثة نحو الفم. تأخذ بعض البصاق. تضعه على رأسٍ أصلع في الظلام. يُحْشَى الفم ماسكاً ببعض الملابس، أو ما يُسمّى خطأ كذلك! الثوب في الفم، والفم في الثوب!

قيل بأن امرأة ذكية من قبيلة الگراطيط، فاتنة الجمال، أرادتْ أن تتخلّص من رائحة فم زوجها التي فاقتْ نتانةَ الثوب الذي يرتديه .. اقترحَتْ عليه أن يُجرِّب النوم معها وهو يعضّ ثوبه بأسنانه! تظاهرتْ باللّذّة وهي تُصدر أصواتاً، ذاعتْ ذبذباتها في ربوع مملكة الگراطيط!

أشاعت الفكرة بين المتضرّرات كلّهنّ اللواتي كنّ يُقبِّلنَ كلّ مساء برميل قاذورات! لجأنَ إلى الحيلة نفسها. توارثها الگراطيط بالعنعنة، إلى أن كادتْ رواياتها تتجاوز متن أبي كُرَيْرَة!

-١٠-

كان الشيخ أبو كُرَيْرَة لا يُبارح مكانه مطلقاً. يأكل وينام في مكانه. تُساعده ابنته الوحيدة في الزحف على يَدَيْه وركبَتَيْه، كي يتخلّص من فضلاته بعيداً عن مكان نومه. يستيقظ مبكّراً، فتبدأ آلته القاضمة في الاشتغال. عندما يزحف تتدلّى لحومه على جنبات هيكله العظمي، وعلى الأرض. لحم فائض نحو الاتّجاهات كلّها. يظهر رأسه كرأس سُلَحْفَاة كبيرة، تجرّ دَرَقَتَهَا الضخمة وسط التراب.

يشترط على زوّاره، الطالبين لتمائم اليمن والتيسير، أن يأتوه ببيضة الديك الرومي (البِيبِي) ودجاجة سوداء إضافة إلى "الفتوح" النقدي!

هكذا أصبح أبو كُرَيْرَة يقتات البيض مَقلياً ومَسلوقاً، ويطهو لحم الدجاج الأسود، بل تبيع بنته، في غفلة منه، الفائض من هذا وذاك. انتفخ بطنه، وتكوّرتْ مؤخّرته، وبرزت جنباته بشكل متسارع. كان يستعين في الأوّل ببعض العصي، كي يتنقّل من مكان إلى آخر حين عجزت قَدَمَاه عن حمل جثّته.

هكذا عاش يُمجِّد البيضَ، إلى أن مات مختنقاً بسببه: علقتْ بيضة مَسلوقة بحُلْقُومه!

-١١-

جلس بالقرب منه. يبتسم يميناً ويساراً. أشار إلى بائع (سَالِقِ) البيض بواحدة .. ابتلعها .. طلب أخرى .. استقرّت في معدته بسرعة .. أشار إلى الثالثة .. الرابعة .. الخامسة .. العاشرة .. فرح بائع البيض، كما يبدو من قسمات وجهه.

انتبه الابن إلى الرجل متعجّباً:

- كيف يأكل البيضة تلو الأخرى بسرعة فائقة؟ البيض ساخن!

نظر إلى هيئته بشكل شمولي ...

وقف ملتهم البيض بعد أن تدلّى بطنه، واهتزّ قميصه الذي كشف عمّا تحته .. اختلط بيضه ببيض بائع البيض ...

رمقهُ كما يرمق الحائر فريسته .. هل يضرب أحمقاً؟ لا يمكن أن يطالبه بالدفع؟

نظر إلى مَنْ حوله قائلاً بمرارة:

- لماذا لم تُخبروني بقدوم هذا الجديد؟

رحل القادم الجديد إلى مدينة الگراطيط كما تغيب فراشة في ليل

مقبرة المدينة .. تطير عالياً.. تتحوّل إلى طائر عظيم، وتمُطر القبور بالبيض الذي يُفقس فوق شواهد القبور، وتُرسم عليها أسماء الحمقى التائهين كلّهم في المدينة ...

تتكرّر حكاية البيض فلا تمرّ سنة بيضاء دون روايتها!

-١٢-

كاد الخوف يبلغ ذروته القصوى حين عاد لاهثاً من المقبرة .. التصق بزوجته التي تلقَّفتْهُ، بغتة، كما يتلقّف العنكبوت فريسته ... اختلط عليه اللُّهَاث بحَنْق الغُبْن. أمسك بزوجته كالمستنجد من الكلب بالتراب!

ارتفع لُهاثه، لُهاثها، الطفلة تتحرّك ببطء قُربهما. سال حليب الثديَيْن الممتلئَيْن فوق بطنه. هل سال من فوق أو من تحت أو اختلط الحليب بالحليب؟!

بعد خروجهما من حالة اللُّهاث، رَشَحَ سائل، لا هو باللزج، ولا هو بالجاري، ليشمل بعض تفاصيل بَدَنَيْهما، يميل إلى البياض، يكاد يُشكِّل محلولاً كيميائياً، يضمّ بعض النقط الشبيهة بمستحلب شجرة الصنوبر المنساب بعد جرح ساقها!

عَلق كلاهما في حليب الآخر كما يعلق الذباب في العسل .. رأى نفسه مُنتكِساً كالمهزوم!

-١٣-

يُحكى أن أب الابن، المرحوم، كان عائداً يمتطي ظهر حماره بعد قضاء يوم مُضن بالسوق الأسبوعي. أتعبَه الركوب، وانقطع الدم عن المنطقة الرابطة بين مقدّمته ومؤخّرته. عرج يساراً، وأوقف حماره. أحسّ بالاحتقان. انحاز إلى مكان به بعض النباتات اليابسة، كي لا تتطاير رشّات بوله على أرجله المتربة، فتصير كالعسل على ثياب وسخة. ضرط حتّى كادتْ بعض الأشياء تنفلت، لولا قوّة أعصاب دائرة إسته.

سمع أصوات فرقعات صغيرة ناعمة .. هزّ رجله اليمنى. رأى أسفلها. لم يعثر على شيء سوى بعض الحصى الصغير .. رفع الرجل اليسرى، فلم يَرَ أيّ شيء يثير الانتباه .. هزّ رأسه، فإذا بالحمار قد رمى ما فوق ظهره كلّه بعد أن تمرّغ في مكانٍ ترابُهُ كالدقيق. كلّما دنا من الحمار تتكرّر الطقطقات:

طق .. طق .. طق .. طق ...

يغمس الحمار رأسَهُ في التراب وهو يُطَقْطِقُ:

طَّاقْ .. طَّاقْ .. طَّاقْ .. طَّاقْ ...

ماذا يُطَقْطِقُ هذا الحمار؟ شيء أخضر ينزلق من فمه المترب. أسرع تجاهه. ضحك مخاطباً حماره بعد أن أدرك بأنه أتى على جلّ

كيلوغرامات التّفّاح البلدي الصغير الأخضر ذي الرائحة الزكية والمذاق الذي يُعجِب ابنه.

انفجر ضاحكاً وهو يُبعد الحمار عن التّفّاح مُعنّفاً إيّاه:

- وايِّيهْ .. ضْرُبْ التّفّاح مع راسك .. راك ناعس في "صبيطار"(*) السويسي أوليدي!

(*) Hôpital = hospital.

-١٤-

شاع بمدينة الگراطيط حبّ سكّانها للحمير. في كلّ منزل حمار على الأقلّ، وذلك أضعف الكسب. لهم فيها مآرب شتّى، وحكاياتهم لا تبلى؛ بل ذاعت أخبارهم خارج أسوار مدينتهم.

حكم قائد المدينة في نازلة طريفة من نوعها على أحد أبناء الگراطيط بعد أن اتّهمه مالك أتانٍ باغتصابها بحكم عجيب، وذلك بعد اعترافه بالمنسوب إليه.

رفع القائد رأسه صوب الشّابّ الذي طأطأ رأسه حشمة! قال القائد:

- عليكَ تجهيز هذه الأتان بزوجٍ من أفخر ما تحتاجه الحمير من عُدَّة .. وذلك أسوة بجميلات المدينة كلّهنّ حين زفافهنّ.

-١٥-

خلال تتابُع سنوات القحط التي توالتْ على مدينة الگراطيط ونواحيها، حاول الناس التّخلّص من كل الحمير التي بحوزتهم إلا الأب. لم تُطاوِعْه نفسه أن يُفرِّط في رمز القبيلة وطوطمها الخالد. إن فَقَدَ حماره، فكأن كنزاً ضاع منه!

حاول أن يصمد أمام توالي الأيّام وتقلّص مخزون التبن الذي يدخره الناس كالتبر. بدأ يُقلّص من حصّة الحمار يومياً. بدتْ عظام بطنه تظهر بعد أن كان ظهره كبطنه. أشفق عليه متذكّراً حكاياته معه. اقتنى كيساً من التبن، وحاول أن يُعوِّض الحمار ما فاته، كي يستعيد سمنته. أكل الحمار الكيس في رمشة عين.

عاد الأب مستغرباً وهو لا يُصدِّق عينَيْه: لم يترك الحمار ولو قشّة على الأرض!

قارن الأب مقدار التبن بثمنه. حاول أن يقارن ثمن ذلك بثمن أيّ شيء في مدينة الگراطيط .. ابتسم وهو يخاطب حماره قائلاً:

- وايه .. انْتَ اللِّي جَاتْ مْعَاكْ .. حْسَنْ لِيكْ تْبَاتْ في "النُّوطِيلْ"(*) دْيَالْ ولد سي مْحَمَّدْ الگرطيط!

*) نطق دارج، بدوي، لكلمة "Hôtel" الفرنسية.

-١٦-

يستعمل سكّان مدينة الگراطيط، الأصليّيْن، "النُّوطِيلْ" لتمييز أقدم فندق عصري في مدينتهم بعد أن ملأتْها الخانات ردحاً من الزمن. أصبح النُّوطِيل رمزاً للغنى واللّذّة والبذخ .. يَلجُهُ أغنياء الگراطيط .. يسكرون في حانته .. يرقصون في صالته .. ينيكون في غرفه .. يصعدون سطحه لإلقاء نظرة بانورامية على مدينتهم الغارقة في بساتين الزيتون .. يركنون في محيطه سيّاراتهم بعد أن استبدلوا بها البغال والحمير والعربات المجرورة، ومنهم مَنْ يأتي إليه بجَرَّارِه الضخم! في مقهاه يعقدون صفقات بيع وشراء محاصيل الزيتون، دواءُ الگراطيط، الحَافِظ لسوادهم، من زيته يدهنون ويشربون .. يدهنون كلّ ما يُدهَن، ويشربون كلّ ما يُشرَب .. بلا حدود ولا قيود طبعاً .. هؤلاء هم الگراطيط، لا يهابون الخسارة أثناء العناد، ولو صرفوا عليها أموالهم التي لا يبادلونها إلا بأنفسهم: "فلوس الخسارة في الشكارة"![*]

في النوطيل يرفعون اللاءات الثلاث:

- لا يمكن للشارب بحانته أن يطلب قنّينة بيرة واحدة، بل صندوقاً غير منقوص!

- لا يشرب الشارب كأس قهوة، بل إبريقاً بالتمام والكمال .. كما لا يعني

---

*) مثل دارج يعني أن مَال الخسارة مضمون في المحفظة.

له شرب الشاي بالمقهى شيئاً، لأنه لا يحتوي إلا على "المَا والزْغَارِيتْ"![*]

- لا ينكح الگرطيط عاهرة واحدة، بل لا بدّ له من ثلاث متتاليات، وأن يُغيّر الغرفة ثلاث مرّات متقاربات .. ومَنْ لم يفعل، فقد راحت همّته!

هَهْ .. هَاهْ .. أَهْ .. هَهْ .. هَاهْ .. أَهْ ...

*) مسكوكة عامّيّة تعني: "الماء والزغاريد".

-١٧-

امتطى الگرطيط "عَوْدَ ريحه"، قصد طريق الخنافس الشهير، لا يمكن أن تسلكه دون أن تُطَقْطِقَ تحت رجلَيْكَ عدداً من الجثث .. كان يتلهّى بصوت الطَّقْطَقَات تحت عجلَتَي درّاجته "الجَعْطَاء"(*) الجرداء: مُجرّد عجلات، والباقي حديد في حديد، والسرج أنبوب حديد طويل، يضع فوقه مالك "الدرّاجة" قطعة خشب، سبق وأن انزاحت مرّة وهو يمرّ بسرعة فوق إحدى الحفر، فلم يتوقّف الحديد إلا أن أوقفه الحديد .. تمزّقتْ عروق جدار الإست، وسال دم كثير، لولا ألطاف السماء!

كلّما رأى خُنْفُسَاء إلا وقرّر المرور فوقها:

طق .. طق .. طق ...

والعجلة الخلفية ترمي قطع الخنافس وأمعاءها وبعض أحشائها على ملابس الگرطيط الطائر وكأنه يركب درّاجة سِحْرِيّة، أو يحاول اكتشاف أمريكا اللاتينية أسوة بدرّاجة تشي غيفارا المناضلة!

يُطَقْطِقُ جثّة خُنْفُسَاء، ويفلت أخرى .. يطارد واحدة وهي تقترب من السياج الشوكي للجُنَيْنَات والبساتين المتراصّة على حافّة الطريق الضّيّق .. يسير بالمقود نحو واحدة ضخمة .. فيغالبه المقود في أثناء بروز منعرج

---

*) كناية على الدرّاجة التي لا تتوفّر على أيّ توابع من باب الفرامل والأضواء وما إلى ذلك من لوازم ...

مفاجئ .. لا خيار، إمّا السقوط وسط كومة الأشواك أو الانجراف نحو الهوّة .. مال بمحض إرادته المغلوبة، إلى أن ساخ وسط الأشواك!

أخرج نفسه مُتّكِئاً على الشوك، سنده من كلّ ناحية .. أزال ما استطاع .. نقط دم تبرز هنا وهناك .. رُضُوضٌ وثقوب وخدوش .. صار جسمه كالغربال!

أصرّ على متابعة طريق الخنافس، لكن أثر وخز الأشواك لم يترك له أملاً كبيراً في تلبية رغبته في الاقتفاء والاصطياد، كما أن أنفاس العجلات لم تتحمّل ثقله!

-١٨-

اجتاز طريق الخنافس وكأنه خرج من جلسة الوخز بالإبر!

أطلّتْ عليه أكوام التبن المحزوم بالأسلاك على شكل مستطيلات، كما تطلّ الربوة على الصاعد من المنحدر .. تفنّن الباعة في تقديمها، كما تُسَوَّق المنتوجات الجديدة في زمننا اليوم!

شاحنات التبن المهترئة تجثم متراصّة في ساحة مدينة الگراطيط، وكأن كرنڤالاً يوشك على البدء!

دخل "الرحبة" ونظرات الناس تلاحقه .. لم يأبه لذلك .. عيناه مغروستان في التبن .. "بالات"(*) (Balles) التبن الشبيهة بـ"ضَامَات البَنَّة" لن تصمد أمام جوع بقراته الهولنديات الملتهمات لكلّ شيء، وكأنهنّ بقرات خرجنَ للتّوّ من سلسلة رسوم متحرّكة يابانية!

حَمَّلَ قِطَع التبن على درّاجته بعد أن أصلح عجلاتها .. ركب على سرجه العجيب ودرجة حذره تتجاوز الحذر ذاته. اتّكأ على المستطيلات التِّبْنِيَّة التي حزمها فوق مَاسِك البضائع وحاملها (Porte bagage).. تحسّس جيبه. عثر على بعض النقود. فكّر في إخماد طنين رأسه وآلام

---

*) طريقة لضغط التبن وشدّه إلى بعضه البعض، بواسطة آلة تُحَوِّله إلى قطع مستطيلة، تُسمّى "البَالْ"، والكلمة مُشتقّة من المفردة الفرنسية "Emballage" التي تعني التعبئة والتحزيم ...

جسده المدجّج بالثقوب. عَرَّج على دكّان "البعوضة"، تاجر مدينة الگراطيط الشهير، عساه يعثر على "بُورْدَلْ"، بائع الشكولاطة المُدوِّخة!

اقتنى قنّينة "كوكا" حمراء، لعلّ صاحبه يظهر. قنّينات المشروبات الغازية كلّها في مدينة الگراطيط يُسمّونها "كوكا"، اللون هو الدّالّ على فعل التمييز، وكأن الجميع في ورشة صباغة!

حَوَّلَ لِفَافته من يمين الفم إلى الجهة اليسرى منه، نفث عدّة أنفاس، امتطى درّاجته، وانصرف. أكمل اللِّفَافة، ورماها خلفه. رفع من درجة وطئه على دوّاسات الدرّاجة. بدأت اللِّفَافة تشتعل شيئاً فشيئاً في مستطيل التبن الفوقي .. اشتعلت النار بالفعل خلف ظهره .. كان لارتفاع السرعة أثر إيجابيّ على تزايد نسبة الهواء .. اشتعلت النار في التبن .. تشمّم رائحة الدخان كما يشتمّ الكلبُ الفريسةَ .. صوتُ أنفاسٍ مسموعٍ يبحث عن أثر الدخان .. بدأت السخونة تدبّ في مسامّ جِلْد قفاه .. بعض شعيرات رأسه تحرق كما يحرق صوف رأس الخروف يوم عيد الأضحى .. تشمّم من جديد رائحة ذلك .. سال لعابه .. أحسّ بجوع شديد بعد تدخين لِفَافة الشوكولاطة .. اعْتَقَدَ أن أحداً ما يُحَضِّر رأس خروف لطَهْي وجبة الكسكس .. شكّ، أيضاً، أن سرعة الدرّاجة ساهمت في احتكاك عجلاتها مع الأرض، فأعطت تلك الرائحة .. زاد من سرعة الدراجة منتشياً بذلك .. فهذا أحسن اختبار ذاتي لقياس قوّته العضلية .. ازداد لفح النار .. ارتفعت الروائح .. أحسّ بأن "ثيابه" تحترق .. أدار رأسه نحو الخلف .. فَاجأَه لهيب النار المحمرّ الذي ينبعث من حزم التبن .. قال في قرارة نفسه المنتشية: صاروخ هذا ما شي بَشْكْلِيطْ!

ضاعف من وطء الدوّاسات، وقد اعتقد أنه على وشك الطيران ..

داهمتْه النيران .. لم تمُهلْه ولو برهة كي يفكّر في طريقة التّوقّف .. أدار رأسه خَلْفاً .. كادت النار أن تحرقَ أهداب عينَيْه .. لم يتمكّن من التّحكُّم في مقود درّاجته الذاهبة نحو السياج الشوكي الضخم للبستان المحاذي للطريق .. استقرّ رفقة درّاجته الملتهبة وسط الأشواك .. اشتعلت النيران .. النيران النيران ...

-١٩-

دخل الگرطيط المستشفى، بَدَتْ عليه أعراضُ مرضٍ عجيبٍ، لا يشبه أمراض أهل الأرض:

- عدم انفتاح الفم ...

- لا يرى إلا البياض ...

- اعوجاج اليد، وانطواء الكفّ ...

أوصاهُ الطبيب المُعَالِجُ بألا يأكل أيّ شيء إلا بإذنه بعد أن ظهرتْ علامات مُطمئِنة على بداية عودة الأشياء إلى وضعها الطبيعي. بدأ الگرطيط يُحرِّك فمه بشكل مضحك، وكأنه قرد في قفص. يُحرِّك يده، كما تُحرِّك آلة الحفر الضخمة "Bulldozer" رأسَها الشبيه باليد البشرية (نحن لا نصنع شيئاً، لا يشبه جسدنا!). عادت بعض الألوان إلى عينه اليمنى إلى درجة صار يتخيّل أنه يرى قنّينة كوكا كولا. إنه عاشقها، ولا يحبّ أنواع كوكا الأخرى. لا تضحكوا! فالگراطيط يُسمُّون المشروبات الغازية كلّها كوكا. وإن أرادوا اقتناء واحدة، يضعون الجذر "كوكا"، ويضيفون إليه اللون، فيقول المشتري للبقّال مثلاً:

اعطيني كوكا حمراء ...

اعطيني كوكا صفراء ...

اعطيني كوكا بيضاء ...

اعطيني كوكا خضراء ...

يصبح لون السائل أو لون الزجاجة هو الماركة والمشروب (فهل من عالم في الماركوتينغ ليحلّ هذه الشفرة الإشهارية العجيبة؟!).

انقضّ الگرطيط على قنّينة كوكا (السوداء طبعاً!) إلى الدرجة التي كاد صاحبها المريض، الذي يتقاسم وإيّاه الغرفة، أن تزهق روحه خوفاً ودهشة؛ إذ لم يعرف كيف تطوّرت الأمور عند رجل كان يعاني منذ رمشة عين ممّا يشبه العمى الأبيض (الگراطيط يقولون لمَنْ يُزعجهم: سِرْ الله يَعْطِيكْ العَمَى لَكْحَلْ!)، وما يشبه الشَّلَل الموضعي، وانسداد الفم .. فجأة، ينقلب كلّ شيء: يرى الألوان، يفتح فمه، يتحرّك كُلّيّاً!

ينسلّ الگرطيط خلسة من غرفته بالمستشفى وهو يحمل قنّينة السِّيرُوم (المصل) التي تتدفّق قطراتها إلى جسده النحيل عبر أنبوب بلاستيكي، تتراءى منه القطرات بكلّ شفافية وكأنها الحياة! يضمّ القنّينة إليه عندما يرى شخصاً قادماً تجاهه، ويبادر برَفْعها كي يترك القطرات تنساب إلى جسده الهارب! انتظر لحظة دخول إحدى السّيّارات من باب المستشفى الرئيس، ليمرّ بمحاذاتها مراوغاً الحارس الذي انشغل بمراقبة راكبي السّيّارة.

وقف أمام البقّال الذي انتبه إلى حال الرجل وهو يتأبّط قنّينته الطّبّيّة!

فتح الگرطيط فاه ناطقاً بأولى الكلمات التجريبية بعد أن لبث فكَّاهُ مُنطبقَيْن على بعضهما البعض:

- قنّينة زجاجية من مشروب كوكا كولا (كوكا الكحلة)، خبزة كبيرة خشنة، وأخرى متوسّطة لينة، علبتَا سردين مصبر، واحدة بالفلفل، والأخرى بالطماطم، خمسون غراماً من الزيتون الأسود، وأخرى من المخلّل، لتر من اللبن، بيضتان مسلوقتان، مائة غرام من "الكاشير" الحارّ، أربع قطع من البقرة الضاحكة (فتح الگرطيط فمه مبتسماً، يحاول تقليد البقرة!).. اجعلْ في كلّ خبزة علبة سردين، وبيضة، وقسِّم عليهما الزيتون والكاشير و"الفورماج"(*) ...

تسلّم الكلّ من البقّال، أمسك قنّينة كوكا كولا، أزال القنّينة والأنبوب الذي كان يُزوّد جسمه بالدواء، وضعها في كيس بلاستيكي أسود، جلس تحت ظلّ شجرة الحامض الموجودة أمام الحانوت .. يقضم من كلّ خبزة ملء فمه، يمضغ قليلاً، ثمّ يُرسل إلى أسفل، تُرَى المضغة في حُلْقُومه منتفخة كالفأر في بطنِ ثعبان، يسكب على كلّ مضغة جرعة كوكا كولا.

لا صوت يعلو فوق صوت تجشُّئه .. أصواته ملأت المكان:

- گُووووووغْ ... گْرَاااااااااااااغْ ... هَأْ ... هَأْ ...

أنهى كمّيّة الأكل في وقت قياسي. تمدّد تحت ظلّ شجرة الحامض. أحسّ بدبيب يسري عبر جسده، ويجتاحه كالماء في أرض جافّة. نام نوماً عميقاً. أراد البقّال أن يُغلق باب محلّه. هل يطلب من الگرطيط ثمن ما اقتنى؟ اقترب منه. لم يسمع أيّ صوت صادر من جهته. ولا نَفَساً حتّى. عاد إلى متجره. أغلق الباب، وراح.

استيقظ الگرطيط من نومه. سار باتّجاه محطّة الطاكسيات الكبرى ...

*) هكذا ينطق بعض "الگراطيط" كلمة "Fromage" (الجبن) الفرنسية ...

-٢٠-

لأوّل مرّة تلج الجماعة منزله. لا أحد يدري ما تُخفيه تلك الحيطان التي يعلوها الشوك. أصوات نسائية تتسرّب من حين لآخر، وكأنها فقاعات بركانية. خطّط صاحب المنزل كي يكون كلّ شيء من حوله. الضيعة ممتدّة، يانعة. حيواناتها متعدّدة، كثيرة، فالموادّ كلّها تأتي حيث المال الوافر. لم يكن يعرف البعض كيف يتسلّل الماكياج إلى شفاه تلك الأفواه التي تتكلّم من وراء الحيطان؟!

المقربون كلّهم، البعيدون في الأصل، حانقون جرّاء العزلة التي يضربها على نفسه ومحيطه. ليس لأن الناس يخافون على حريمهم من رؤية الناس الشَّبَقِيّيْن. لا يريد أحداً أن يفطن لخريطة دَفْن أمواله. متخصّص في زرع أكياس المال كخرّيج أكاديمية عسكرية، لا يُتقن إلا زرع الألغام. ماذا لو ضاعت منه الخريطة؟ لقد أضاعَها القدامى، وتركوها سائبة للعفاريت والجنون ولفقهاء منطقة "سوس"! ولصيّادي الأطفال الزُّهْرِيِّيْن، قرابين عصرنا!

يجلس فوق كركور(*) وسط مزرعته المحصّنة كقصر ديكتاتور، يتأمّل (ويا ليته كذلك!) ما يجري من حوله أو أنه يتصوّر نفسه زعيم قبيلة يلهو وسط أكوام أمواله المدفونة!

---

*) مفردة دارجة تعني مجموعة من الأحجار الموضوعة فوق بعضها البعض ...

شاع بأن الرجل مريض، ولا بدّ من عيادته وفكّ الحصار عن أسرته التي يحاصرها ويَحُولُ دون تواصلها مع الناس. دعا الفقيهُ الناسَ بعد صلاة العصر إلى تَرْك الضغينة في وقت الشدّة قائلاً:

- عبادَ الله، المسلم للمسلم في الشّدّة ...

فور دخول المنزل، رفع الفقيه أكفّ الدعاء إلى الخالق الباري قائلاً:

- حمداً لله الذي كتب لنا هذا، وما نحن له بمقرنين .. أيّها الإخوة .. حمداً لله الذي أحيانا حتّى تطأ أقدامنا منزل هذا الرجل .. ندعو الله أن يهديه إلى صراطه القويم .. ولا تنسوا أيّها الجماعة الدعاءَ لحفْظ هذا الحمار المبارك الذي أسقط الرجل، وجعلنا نُحيي صلة الرحم به ...

صاح الگرطيط بقواه كلّها:

اخرجوا من منزلي، أيّها المنافقون .. أجئتُم لمواساتي؟ أم للتّشفّي في مأساتي؟! اخرجوا، فَمَنْ طلب منكم المجيء إلى بيتي، أيّها الخاسئون؟ .. اخرجوا ..اخ .. إخْ .. اخ .. إخْ .. اخ .. إخْ ...

-٢١-

يتناول فطوره باكراً. قليل من اللبن يحوي كثيراً من السّكّر. قطعة من خبز الشعير، إذا ضربتَ بها شخصاً يُجرَح، وإن أردتَ أن تُعذِّبه، مررها بقوّة على جزء من لحمه، سترى جِلْده وكأنه قد تعرّض لسقوط عنيف، جعله يحتكّ بقوّة على الإسفلت!

بعد انتهاء الوجبة الشبيهة بوجبات الزهّاد والمتصوّفة، الخالية من الدهون والكوليستيرول، يستقرّ به الحال فوق "البَدُّوزَة" وكأنه يكمل وجبته برائحة الروث وفضلات البهائم الطّرية .. يجثم على ذخيرة حيّة من الروائح. غالباً ما يستأنس الكراطيط بالروائح النتنة، إلى درجة يصعب الفكاك عنها! يُصابون بالحساسية في الأماكن ذات الأجواء النقية!

يُشكّل كَرْكُورُ الفضلات مرصده اليومي الذي يراقب من فوقه ما يجري خلال صباح القرية. أضحى جزءاً من الفضلات، أو أضحت الفضلات جزءاً منه .. هَيْأَتُه لا تختلف عن لَفْلاق يقتات من القمامة!

اختفى فجأة. لم يظهرْ له أثر. سأل أقرباؤُه سكَّانَ القرية كلَّهم. أصبحت حكايته على كلّ لسان. يُخبر بعض الناس، العائدين إلى القرية في ساعة متأخّرة من الليل أو المغادرين لها فجراً، بأنهم يرونه، من حين لآخر، مُعتلياً مكانه المعتاد فوق البدوزة. ما يلبث حَامِل الخبر إلى أسرته أن يعود رفقة أحدهم، فإذا بالواقع يُكذِّبه!

انتشرت حكاية ظهوره واختفائه في "بَدُّوزَات" القرية وفوق "الكَرَاكِر" ممّا جعل الهلع يتسرّب إلى نفوس الناس، فلم يستطع أحد منهم أن يغامر بالخروج منفرداً ليلاً!

-٢٢-

لم يكن يتصوّر شيئاً أحلى من السّكّر. ذلك البياض المُقَوْلَب الملفوف في الكاغد الأزرق. يسرّ الناظرين، ويثير سيلان اللعاب. يشتهيه الگرطيط. أعزّ ما يحبّ أن "يُعَزِّزَه". لا يخاف من الأمراض الطارئة: آلة من لحم ودم تحرق كلّ شيء .. يفترس الشحم مَطهياً ونَيِّئاً، يشرب عسل السّكّر كالماء، يضع قِطَع الخبز في السَّمْن المُذاب، ويشرب الخليط بمِغْرَفَة خشبيّة دون هوادة .. لا يظهر عليه أيّ أثر للسّمنة أو الانتفاخ. يأتي على الرصيد الاحتياطي من السّكّر، والدهنيات، ويمتصّ مخّ العظام!

قد يتحوّل الجسم البشري إلى آلة تتحدّى كلّ ما قاله أبقراط وأتباعه من الأطبّاء والجرّارين ...؟

يحدث أن يسرق الگرطيط قالب سُكّر يوم انعقاد السوق الأسبوعي، يختلي بنفسه وبالقالب، يأكله كُلّيّاً، وفي رَقْم قياسي، لا يتجاوز ربع الساعة .. يعود إلى السوق لاقتناء ما يرغب فيه، أشياء تشبه المؤونة الأسبوعية!

يقال عن الگراطيط بأنهم يعيشون بالريح كالأرانب!

بينما يحمل كيسه على ظهره، داهمه عَرَق كثيف .. أراد أن يبتلعَ ريقه، فصعدت المياه من أعماق بلعومه، كي تجرف الريق، وما في الطريق ..

تضاءلت القوّة الحاصرة لعضلات إسته، فتسرّبت المياه الصفراء الآسنة، لتسقي ما يعادل مساحة جلوسه .. ظهر الگرطيط جاثماً وسط الصفرة كزهرة شاحبة تنبت وسط ما تبقّى من غائطِ كلبٍ في فصل الربيع!

-٢٣-

لا يستطيع أحد الاقتراب منه. ينفث روائحه الكريهة وكأنه مرحاض متنقّل! يُلقّبونه الشَّاكْمَة(*) من كثرة الضراط. يقول المُطّلعون من الگراطيط، والعُهْدة على مَنْ رأى، أن مَخْرَجَه قد اسْوَدَّ لونه جرّاء الطلقات المتوالية التي يلفظها وكأنه مسدّس من عيار مصنّف!

يطال قَصْفه كلَّ مَنْ يجالسه أو يمرّ بالقرب منه. لم يعد الناس يطيقونه. ولا يريد بدوره أن يسمعَ نصائح أحد. رؤوس الگراطيط "قَاسْحَة" (صلبة) كالحجر: لا ينتصحون! يوصيه الناس بالامتناع عن الإكثار من اللبن الحامض والخبز البارد، وتنويع الأكل، والتعاطي للخضر، والإكثار من شرب الماء، وعدم حَبْس الفضلات حين يصل موعد ضغطها: لا يحبّ الگراطيط الإفراج عمّا بأمعائهم ظنّاً منهم أن ذلك يدفعهم إلى الاستهلاك أكثر! لا شيء يرهب الگراطيط أكثر من الإنفاق! مُقَتِّرُون على أنفسهم بشكل رهيب!

يُحكى أن بعضهم قد تعرّض إلى تمزّقات معوية أكثر من مرّة، وأن بعضهم انفجر، كما تنفجر الأبقار الهولندية مع فارق معكوس: الأبقار تنفجر من كثرة نهمها، والگراطيط ينفجرون جرّاء تجميع الأكل في أمعائهم!

يا له من احتباس عجيب!

---

*) لفظ دارج يشير إلى عادمة السّيّارات.

-٢٤-

يعتقد الگراطيط أن الغول سيعود يوماً! وسيأخذ معه كلّ مَنْ أكل بيضه(*) أو استعان به لقضاء بعض حاجاته الدنيوية! سيتبعه الفقراء، وسيقضي على الأغنياء. سيُزوّج العازبات والعزّاب. يُسَمِّن النَّحِيفين والنَّحِيفات. سيمنح بيضَهُ الأسطوري لأتباعه كلّهم. بيض لا يشبه بيض الغول الأرضي المزعوم. البيض الأصل، وليس الصورة.

بيضُ الغول بيضٌ نباتيّ يغري النساء. يتبرّكنَ، يَتَيَمَّمنَ، يَسْتَعِنَّ به في انتظار أن يحظينَ بالبيض الموعود. يدخرن الأصيل منه كالذهب أو الحجر الحيّ(**). من مؤشّرات امتلاكه امتلاء الأرداف وكِبَرُ المؤخّرة. لا غرو، فنساء الگراطيط يتنافسنَ في تغليظها نزولاً عند رغبة أزواجهنّ. إنها من معايير الأنوثة والأناقة والجمال .. وقليلات السَّعْد، المنحوسات، مَنْ لا يُرزقنَ بها، أو لا يفلحنَ في نفخها. حينئذ يكون بيض الغول آخر الدواء.

*) نبتة عجيبة اشتهرت بأسماء غريبة: يسمّونها في مصر فقوس الحمار، بلحة جحا، بزيط؛ وفي الشام تفّاح الجنّ أو بيض الجنّ؛ ويسمّيها أهل المغرب بيض الغول؛ ومن أسمائها العربية تفّاح الشيطان، تفّاح أبو مجن، تفّاح انجن، تفّاح مجل، سَفَرْجَل، خُوخٌ يخوخ مَنْ يأكله، خوخ انجن، جريبح، يبروح وشجعه؛ واسم هذه النبتة العلمي (Mandragora officinalis) ، وهي من العائلة الباذنجانية، أمّا اسمها الأوربي، فهو Mandragora ومعناه "ضارّ بالأبقار".

**) يُشاع بين الگراطيط أن الطبيعة تتوفّر على حَجَر حَيٍّ يتنفّس ويأكل الثمر، تكتنزه نساء قليلات عارفات بأسراره .. وهو بمثابة السلاح المُنْقِذ في زمن الشّدّة. مَنْ تمتلكه لا تخاف العين ولا السِّحْر .. وهو مفتاح للمغالق كلّها.. يصيب الأطفال الصغار إن رأوه بالحَوَل .. لا يموت إلا بوَضْعه في إناء ذي قعر عميق من الماء المغلي، لا يتيح له القفز .. كلّما ارتفعت درجة غليان الماء يُصدر أصواتاً شبيهة ببكاء الأطفال الرّضّع!

يطبخ في الماء لمدّة قليلة. يبرد ويقشر. يُستعمل على شكل قويلبات "Suppositoires" عبر المَخْرَج.

يُشاع أن امرأة بلغتْ من النحافة ما جعلها عرضة للطلاق. كانت تأكل ليلاً نهارا خلسة من زوجها. تلجأ إلى أمّها للتّزوّد ببعض الأكل، فالگراطيط يُقنّنون الأكل، ويحصُون الموادّ الغذائية لنسائهنّ قبل الخروج، أمّا إذا كان الزوج يسكن رفقة والدَيْه، فتقوم الأمّ بدور المكلّف بالتموين؛ إذ تقبض على مفتاح بيت التخزين بقبضة من حديد ...

استعملت المرأة الوصفات الطبيعية المتداولة كلّها .. دخلت في صراع مع الزمن الذي لم يعدْ في صالحها. تُلاحقها تهديدات الزوج وضغوطات العائلة بشكل رهيب. رَقَّ قلب إحدى جاراتها. زوّدتها ببيضة الغول. حكتْ لها الطريقة.

استعملت ذلك أسابيع معدودات. لم تلاحظ الفارق. الجِلْد ملازم للعظم. قرّرتْ أن تضاعف الوصفة. لم يبرح القويلب مخرج مؤخّرتها إلا لتُخرجَ الفضلات المقولبة. لا شيء يثنيها عن العناية ببيض الغول. تحفظه في مكان لا يتسرّب إليه الهواء أو الرطوبة أو النور .. من الظلام إلى الظلام!

بدأت السيقان والأذرع تنتفخ بشكل أبهج العائلة. امتلأتْ وجنتاها. تدلّى النهدان. كسا اللحمُ العظمَ. انتفخت المرأة كالبالون .. فاجأها لحم عجيرتها. تلمسه، فلا تحسّ بذلك. فرح زوجها، واستبشرت عائلتها خيراً. كسبت الرهان. لعب بيض الغول دور الفَارْمَكُون "Pharmacon". انتظرت المرأة بعض الأيّام، لتستعيد إحساسها. جرّبت الحركات كلّها مع

زوجها المبتهج المنتشي. لم يعد الإحساس كما كان. لم تعد تحسّ أين يُولِجُ زوجها شيئه ...

ما الذي وقع؟! هل أصبحتُ أحمل خلفي كتلة من اللحم الميت؟!

تتساءل مستغربة!

-٢٥-

لا يفارق الابنُ كلبته الأليفة، اللصيقة به كالقمل برأس الأحمق! ترافقه في المنزل وخارجه .. في حانوت القرية .. وفي الأفراح والأتراح .. أطلق عليه الگراطيط لقب "بوكلبة"، وصاروا يصفون بعض الوجوه، في أثناء المناوشات، بزغنين(*) الكلبة، لأنهم خبروه من خلال رفيقة الابن، تماماً كما خبروا الأعضاء التناسلية للأتان والبغلة والبقرة والنعجة والعنزة .. وما اعتادوا على إطفاء نيران مراهقتهم المتأجّجة بها. الجميع يعلم ولا يُصرِّح.

يعتني بكلبته كما تعتني الأمّ بطفلها. ينظفّها يومياً بالصابون، ويُهمل نفسه أسابيع متوالية. آه! مَنْ يتوفّر على الصابون، فكأنه يمتلك شيئاً نادراً وسط أناس لا تعني لهم موادّ التنظيف شيئاً. اعتاد شراء الصابون بسرّيّة تامّة، كما يحصل المدمنون على المخدّرات. يحرص على ألا تقتات الفضلات البشرية التي تُشكّل الوجبة الأولى لكلاب الگراطيط الذين لا يمتلكون المراحيض. أمعاء الكلاب مراحيضهم .. وألا تتناول لحوم حيوانات القرية النافقة. يتقاسم معها ما يقتاته .. وألا تخالط الكلاب. يحافظ على عذريّتها، لو كان للكلاب عذرية. ارتبطتْ به منذ أن كانت جروة صغيرة، فدأبتْ على عادات أمّه التي كانت تستعين بها لحراسة البيت. يعرفون رائحتها، وتَخبر روائحهم. لها نباح حادّ. قادرة على إصدار نباح الإنذار، إذا اقترب غريب عن القرية من حوش البيت.

---

*) الزغنين أو التَّفُّوش .. من ألفاظ اللغة المغربية (الدَّارِجَة) التي تُطلق على العضو التناسلي للمرأة.

يتعامل معها وفق طقوس خاصة. عَلَّمَهَا أشياء تقترب من العادات البشرية. تجلس القرفصاء. تشرب وتأكل في أوقات خاصّة، ولو أدركها العطش أو الجوع خارج المنزل تنبح بشكل مغاير. تعشق الزبدة. تشرب الشاي. تأكل فاكهة الصّبّار بشغف. تنام على جانبها الأيمن وَاضعة رجلها الأمامية اليمنى تحت رأسها. لا يهتمّ بابنه كما كان يهتمّ بها. تزوّج منذ أن ماتت ووارها الثرى، خلسة، بمقبرة القرية وفق طقوس الگراطيط.

اضطرّ لقتلها مضطرّاً. فبعد أن أَلِفَت لَحْس أيره الذي كان يطليه بالسَّمْن؛ إذ تَلْعَقُ الجروة الأنيقة السَّمْن من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، بشكل طولي ودائري، مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ، وكلّما انتهى الدسم يطليه كما يُشحِّم الميكانيكي لولب سيّارة طاله الصدأ! جاء اليوم الذي انقضتْ فيه الدهون، ونضبتْ ضروع المواشي، حاول أن يُجرِّب زغنينها. أولج ذَكَرَهُ رويداً رويداً، متحمّلاً قَمَشَاتِهَا ونباحها وعضّاتها. أكمل الإدخال، فأحكم قبضته عليها محاولاً أن يزحزح الجروة نحو الأعلى والأسفل، ولكن ألماً شديداً بدأ يتسرّب إلى محيط الحوض بدءاً من عضوه التناسلي. يحسّ بأن الكلبة انكمشتْ كما يتقلّص المطّاط حين يوضع في الماء البارد، أو كما تنكمش تلك المخلوقات البحرية اللزجة النائمة حين تصطاد طريدتها في الأعماق! كلّما أراد أن ينتزعَها أو ينتزع أيرَهُ منها ترتفع وثيرة الألم. صمد وهو يحاول أن يَدْلِكَ ظهر الجروة، ويحكّ فروها بلطف، عَلَّهَا ترتخي. صمد إلى أن وصل درجةً من التّحمّل لم يعد له خيار بين شيئَيْنْ اثنَيْنْ: إمّا أن يقتلَ كلبته، رفيقته؛ وإمّا أن يموت فداء لعشقه الكلبي هذا!

اختار، قهراً، أن يلفّ عنقها بيَدَيْه. قاومتْ بكلّ ما أُوتيتْ من قوّة إلا أنه أحكم خناقها، فاسترختْ، وخارتْ قواها. تمدّدتْ أرجلها، ارتخى رأسها،

صعدتْ عيناها إلى أعلى جمجمتها. حاول أن يجرّها، أو أن يجرّ قضيبه منها إلا أن عضلاتها تزداد انقباضاً، وكأن نفوساً احتياطية تسكنها. فهل صدّق اعتقاد الگراطيط بأن للكلاب سبعة أرواح؟!

نهض بصعوبة بالغة، وكأن شيئاً يُمسكه من ذَكَرِه .. وما أفظع ذلك الإمساك! استلّ موسه من جيب سرواله، وسقط على ركبَتَيْه. بدأ يسلخ الجزء السفلي من جسد الكلبة، كما يسلخ الجزّارُ الشاةَ. يقطع زغنينها، وكأنه يقطع لحمه. فتحها من بطنها مُنقِّباً عن شيئه كي لا يجرحه. أمسكه، وحاول تمرير الموسى من فوقه نحو مؤخّرة الكلبة. انتبه إلى أن هذه الطريقة ستنتهي بِبَقْر أسفل بطنه. أدخل أصابع يده اليمنى تحت اللحم المحيط بدائرة زغنين الكلبة، وأمسك بيده اليسرى ذيلها. سَلَّ قضيبه منها، كما يستلّ الطبيب رصاصة من صدغ جندي.

أرخى جسده نحو الوراء .. لم يستطع رؤية ما فعل ...

-٢٦-

لم يستطع الابنُ مسايرة إيقاع مدينة الگراطيط، حاول أن يمتهن حِرَفاً إضافية، علّه يغطّي من عائداتها العجز الذي يعانيه جرّاء توالي سنوات الجفاف، وما تكبّده خلالها من خسائر قاسية. لم تعد مداخيل الأراضي كافية. لا يريد أن يحسّ ابنه وزوجته بالضيق الذي يعانيه. اعتادوا نمط عيش، لا هو بالمتقشّف ولا هو بالميسور. حالة تتجاوز البداوة المتقشّفة، الخائفة من المستقبل، ولا تريد أن تصاب بعدوى الاستهلاك.

تتسارع المتطلّبات شهراً بعد آخر. مصاريف العطلة الصيفية وما تتطلّبه من نزوح نحو الشاطئ، شهر رمضان والاشتهاءات اللامتناهية، عيد الفطر ومصاريف الحلويات والملابس الجديدة، الدخول المدرسي وغلاء المقرّرات الأجنبية، عيد الأضحى والتنافس على قرون الخرفان .. متوالية من الظواهر الناسفة للجيب، وكأن دورة الزمان تنقبض، وتضغط الناس معها! لا يمكن حفْظ النقود في المدينة. تشتري كلّ شيء، ويختفي كلّ شيء. يصعب اِدخار المُؤن. عجباً! يَعدِم ثلاثة أشخاص من الموادّ الغذائية ضعفَي ما تستهلكه قرية من الگراطيط المكتفين بِحِمْيَةٍ تقشّفية، عِمَادُهَا بعض المنتوجات المحلّيّة التي ينتقصونها ممّا يُسَوِّقُونَه وكأنهم يقتصّونها من جلودهم السمراء المحروقة الملتصقة بعظامهم البارزة.

تتوالى الشهور بشكل مختلف. الإيقاع متسارع. السيولة تنضب. الطفل

يكبر. بعض الشعيرات البيضاء تستقرّ في الأنف دون سواه .. تطالب المرأة بطفلة تزاوج بها ولدها. يرغب الأب في الاختلاء مع قنّينانه الخضراء. يستيقظ الناس كلّ صباح دون أن يعيشوا عكس ما يقع دائماً. الشكوى من الزمان .. يلعنون الوقت ...

يتأمّل قاع القنّينة بالطريقة نفسها، في المكان نفسه، فوق الكرسي ذاته، قرب الشجرة عينها. وحده شهر ذو الحرْقة(*) يطول آخره كذيل ثعبان مرقّط بالأسود والأصفر. تسوده انتظارية لعينة، تتجاوز في ثقلها إزالة ديكتاتور عن عرشه.

غفا إغفاءة السَّكْران. وضعيةٌ تجعل صاحبها متخشّباً فوق كرسيه. تراه دون حركة من بعيد، وما إن تلمس طاولته يتحرّك مستيقظاً كدجاجة كانت تدسّ رأسها تحت جناحها الأيمن! شاهد خلال نومه الدجاجي سُلَحْفَاة صغيرة تلتهم ورقة نقدية خضراء ظانّة بأنها نبتة الخصس المحبّبة إلى ذائقتها الأليفة. أراد أن يمسك الورقة قبل أن تأتي السُّلَحْفَاة الجائعة على أرقامها، فلا يقبلها أحد. مدّ يده إلى الأمام، والسُّلَحْفَاة تبتعد بسرعة غير معهودة من بنات فصيلتها. أصرّ على ملاحقتها. سار فوق الطاولات، كما يسير الساحر فوق الماء! صدَّه جدار الحانة، فسقط.

*)- تشير الحَرْقَة في اللغة المغربية إلى معنَيَيْن مختلفَيْن: الضراط وخواء الجيب.

-٢٧-

يحدث من فينة لأخرى، حين تمتدّ يد الابن إلى الطَّارْمَة(*)، أن تُحذّره الأمّ من عواقب انغلاقها على يده. تدخر فيها السَّمْن والفواكه الجافّة وما إلى ذلك من القوت الخاصّ والنادر .. ظلّتْ تحافظ على هذه العادة منذ أن كان زوجها يجلب المقوّيات الخاصّة بهما. يستفردان بها حينما يغطّ الابن في نومه. كان بعض الگراطيط يضعون في "فَمِ" الطَّارْمَة قطعاً من أغصان السِّدْر، فإذا ما اكتشفها أحد الأطفال الفضوليّيْن تخزه الأشواك، ولا يفكّر في العودة إلى المكان ثانية!

اقتربتْ يد الابن، في الحُلم، من الطَّارْمَة. أحسّ أن قوّة تجرّه نحو الداخل. استجمع قواه محاولاً التّملّص. تارة تأخذه إليها، وتارة يجذبها نحوه بعنف. يريد أن يرى وجه تلك القوّة لو كان لها وجهٌ يُرَى! استمرّ مسلسل المناورة بينهما. تركتْهُ لبعض الوقت. ظنّ أنها استسلمتْ. دنا من الطَّارْمَة برأسه. سحبتْهُ نحو الداخل. أصبح رأسه مَحشوّاً بين كتفَيْه كالأحدب. أحسّ بأن عظامه تتقلّص، وكأن محلولاً كيماوياً، يُصبُّ عليها!

فجأة، نسي كلّ شيء. سافر عبر دوّامة ضوئية، رفعتْه إلى أعلى، وكأنه محمول فوق بساط سِحْرِيّ! أحسّ بالانتشاء والارتخاء. بدأ يتأرجح كالطائرة

*) كلمة دارجة تعني ما يشبه الثقب الغائر في الحائط .. وتُستعمل في التخزين وأغراض أخرى مشابهة ...

في المطبّ الهوائيّ! اعتقد أن ذلك مُجرّد تكثيف للاسترخاء إلا أن الأمر يأخذ منحى صوب الكارثة. أراد أن يقاوم بيَدَيْه. أدرك أن ما فوق الكتف مضغوط شبه عالق داخل الطَّارْمَة التي تخيّل بأن ثقبها الضّيّق يكاد يتحوّل إلى فم، سيَقْرِمُه بسرعة. انتفض بعنف. استيقظ مذعوراً والعَرَق يتفصّد من مسامّه. لم يقدر على إخراج قُنَّة رأسه من داخل المسند الذي كان ينام عليه. وجد جسده مَطويّاً بشكل غريب. الأرجل والأيدي مجموعة إلى بعضها البعض. انطواء شبيه بالحركات البهلوانية للاعب سيرك محترف. من أين له بهذه القوّة وهو لا يستطيع أن يرفع قَدَمَهُ متراً واحداً عن الأرض؟! حرّك أطرافه مُتفقّداً إيّاها. الكسور ترهب الگراطيط. يصبح كلّ مكسور عرضة للاعتداء ونتف الزغب!

-٢٨-

تموت فصيلة الگراطيط الآدمية في زغب الأرجل. لا جمال دونه. لا غرو، فبعض الفصائل الأولى تظلّ مُنشدَّة إلى الفصيلة الأصل. فصيلة الزغبيات أو المزغبات، لو سمح لنا علماء البيولوجيا بهذا التصنيف، وأضافوه إلى موسوعتهم "La nomenclature". يحبّون المرأة ذات الأرجل المُزَغَّبَة. لا تدخر نساؤهم، المسكينات، جهداً في العناية به، وتعمل "البلقاوات" على الاجتهاد في إيجاد وصفات لاستنباته.

أسرار وعجائب يتمّ تداولها، سِرّاً، بين الباحثات عن زغب الأرجل. وقائع وحوادث تتستّر عليها النساء. بثور ودمامل وخرائط تغطّيها غابات الزغب. وحدهم العطّارون يحتفظون بألغاز الوصفات والمراهم، ويخبرون تلك البراري التي تتشكّل تحت السراويل النسائية الطويلة، أو تلك التي تتهدّل سائبة بين الفخذَيْن. يحبّ الگرطيط أن يبحث عن الثقب وسط الكثافة كما يبحث الصّيّاد عن الصدفيات بين طحالب البحر وحشائشه!

تجتهد بعض النساء، الراغبات في التّستّر على تطويل الزغب، في ابتكار طُرُق جديدة للرعاية والوقاية. ينتقينَ بقايا رماد الفضلات الحيوانية الطبيعية والأخشاب والتبن، يخلطنَ ذلك في إناء من الطين، ويحرصنَ على طلاء شَعْر العانة كما يخضّبنَ شَعْر الرأس بالحنّاء المعطّرة بالقَرَنْفُل. عندما يبس الخليط تتساقط الحبيبات الرمادية بفعل الاحتكاك كما تتساقط

الرمال من السماء بعد زوبعة دائرية عاصفة .. قد يحدث أن يُداهم الگرطيط زوجتَهُ في أيّة لحظة، دون سابق تفصيل، أو إيماء، وذلك كما يداهم ابن آوى فريسته! تُسفر المعركة عن بقايا الرماد الممزوجة بالمياه المتخثّرة التي تنبعث منها رائحة الصلصال، وكأن المتعاركَيْن يعيدان أسطورة الخَلْقِ الصلصاليّ الأولى!

ينتعش الگرطيط مغنّياً:

إِلَى بْغِيتِي تْعِيشْ(*).. خَصَّكْ تَخْتَارْ

السَّاگْ لَمْزَغَّبْ.. لَعْيُونْ لُكْبَارْ

---

*) يحيل فعل عاش في اللغة المغربية حسب بعض المناطق على فنّ المراودة والتّمتّع بالمرأة قبل وبعد الجِمَاع ...

-٢٩-

بقرة تلتهم زهرة حمراء يانعة .. عنزة تتبوّل على الأرضية المعشوشبة لملعب الكرة .. نعجة عجوز تُرضع حَمَلاً صغيراً قرب النافورة .. حمار هائج يطارد أَتَانَاً، ويدخلان مقرّ البلدية .. بغل يمرّ قرب بوّابة القرض الفلاحي .. عمّال النظافة يجمعون فضلات البهائم اليابسة فقط. يعتاشون منها كمصدر دخل إضافي. يبيعونه لبعض الأسر التي تقطن أحياء الطوب والتراب على حافّات المدينة. يطهون الخبز والمأكولات، ويُسخّنون الماء بطريقة طبيعية، بعيداً عن قنابل الغاز الموقوتة.

جحافل من البهائم التائهة بطريقة مُنظّمة. يحدث أن يُوزِّع الگراطيط ماشيتهم في أهمّ النقط الخضراء صباحاً. لا يستطيع الحُرّاس أن يُمسكوها، تفرّ من كلّ غريب. مدرّبة كحيوانات السيرك. يجمعونها في المساء. إن حدث وأمسكت بها سلطات مدينة الگراطيط، وأودعتْها المحجز البلدي، فقد يظهر صاحبها، ليؤدّي مُكُوس الإقامة الحيوانية. ويُحرّر محضراً وصفياً للحيوان، وإذا تكرّرت الواقعة يُسْلَب من مالكه، ويُباع في المزاد العلني، أمّا إن كان الحيوان "محروم اللحم"، فتلجأ السلطات لضَمّه إلى قطيع البلدية، كي تستفيد من خدماته في جَرّ عربات جمع أزبال مخلوقات المدينة. بعض البهائم التي لا يسأل عنها أصحابها تُباع لجرّاري المدينة الذين يُوزّعون لحومها على بائعي النقانق والمأكولات بالمدينة.

هل تدري البقرة بأنها تلتهم وردة؟! هل تعرف ثمن استنبات الوردة في حديقة عمومية؟!

كان بعض الگراطيط يطرح مثل هذه الأسئلة أثناء محاكمات المنتهكين لحُرمات الحدائق داخل المحيط الحضري للمدينة .. رجال ونساء يدافعون عن حيواناتهم، ويطالبون بحقّها في الرعي والتّجوّل داخل المدينة .. ضدّاً على المنطق الأخضر! إنها من مخلوقات الله، ومن حقّها أن تعيش حُرّة طليقة! ثمّ مَنْ يستطيع أن يرصد تاريخ الحدائق بهذه المدينة؟ بل متى أصبحت مدينة؟ لقد كانت مساحات رَعي لبهائم الگراطيط، بعضهم يتذكّر تفاصيل سهوبها وسهولها ووديانها ومرتفعاتها، ولهم فيها ذكريات شتّى. المرعى أوّلاً، وبعد ذلك الحديقة، بل إن المرعى أوّل حديقة، لم يتدخّل فيها الإنسان. فضاء طبيعي مُتوحّش.

حين يرخص اللحم ومشتقّاته، فاعلم أن الجفاف يعمّ الضواحي والنواحي ...

حين تتحوّل المدينة إلى مرعى كبير .. يتحوّل الكلّ إلى رعاة ...

ما أروع الوردة في حديقة عمومية! ما أتعس لحظة ذبول الورد! ما أجمل الوردة في بطن حمار جائع!

-٣٠-

دخل الرجل منزل الابن بعد الظهيرة، فترة الغذاء تحديداً. رحّبت به الزوجة، وتبادلا الحديث حول الأهل والقرية. طرح عليها الشيخ عدّة أسئلة دون أن يهتمّ بحضور زوجها، وكأنه جاء ليستجوبَها، بالضبط، حول أمور الحياة بين القرية والمدينة، الألفة والوحدة والغربة، والاقتناء والوفرة، والتّصنّع والاصطناع، التفريط في الأصل، الخوف على الطفل .. وهي أمور تظهر، للزوج، بفعل السّنّ، غير ذات قيمة في زمنه، فهو لم يعد يطيق حياة الندرة والتّقشّف، المساءلة والبصّ ...

التفت الشيخ إلى الابن الممسك بيد ابنه الصغير، يداعب أصابعه هامساً:

هَذَا سْرَقْ البْوَيْضَة
أُو هَذَا شْوَاهَا
أُو هَذَا نَقَّاهَا
أُو هَذَا جَا قَالْ لِيهُمْ: فِينْ حَقِّي؟
قَالُوا لِيهْ: حقك كلاتو المُشَّة
قَالْ لِيهُمْ: أُو فِينْ المشة
قَالُوا لِيهْ: تَحْتْ الخَنْشَة
قَالْ لِيهُمْ: أُو فِينْ الخَنْشَة
قَالُوا لِيهْ: الخَنْشَة دَّاهَا الوَادْ

هَا طْرِيقُو.. هَا طْرِيقُو.. هَا طْرِيقُو...

يرفع الابن يدَ ابنه نحو الأعلى، ويجعل أصابع يده تنسلّ نحو إبطه، كي يُضحكه. نهضت الزوجة لإحضار الشاي. أثنى الشيخ على الأب. جال بعينيه في أركان البيت. حدّق في السقف. مرّر يده على الأريكة التي يجلس عليها. دقّق في التفاصيل. استرعتْ اهتمامه مرآة كبيرة تتوسّط الحائط المقابل له، تستحوذ على ثلثي عرضه. سأل الابن قائلاً:

- هؤلاء جيرانكَ؟

لم ينتبه إليه للوهلة الأولى، ظانّاً بأنه، ربّما، يسأل عن أحوال المعاشرة والجوار بهذا المكان، لكنه تابع إشارة الشيخ نحو الحائط .. لم يتمالك أنفاسه، فأصدر قهقهة مُدوّية. أجاب والضحك يُغالبُهُ:

- تلك صورنا منعكسة على سطح المرآة.

دخلت الزوجة حاملةً أطباق الأكل: سلطة مغربية، تفوح منها رائحة "زيت العود"(*)، زيتون لا أثر فيه للصودا، خضر مَقلية، طجين سمك من السردين، طبق مَقلي من السمك نفسه.

انتظر الشيخ الجلوس النهائي للزوجة واستواءها رغم أن زوجها بدأ الأكل منذ أن جاءت بأولى الأطباق. شعاره الدائم: "الحُرّيّة ألا تنتظر أحداً"، وألا تقول للضيف "كُلْ"، فهذا تحصيل حاصل. يتعقّب الشيخ تنقُّلات الزوج بين الأطباق. لم يستطع مجاراته. لم تعد تُسعفه أسنانه. أمسك بسمكة سردين مَقلية. فتحها. لاحظ كمّيّات القزبر والبقدونس والتوابل المَحشوّة بداخلها. علّق قائلاً:

---

*- زيت الزيتون الطبيعي.

- بَنْتْ لَحْرَامْ .. شَبْعَانَة رْبِيعْ!

اختلط ضحك الابن بسعاله، فخرج مسرعاً نحو المرحاض .. ربطت الزوجة جأشَها شارحة للشيخ كيفية إعداد السمك .. عاد الزوج آثار البكاء تبدو على مآقيه من شدّة الضحك. جلس مبتسماً دون أكل ...

-٣١-

مَرَّرَ أصابع يده اليسرى المفتوحة بين الخصلات المتدلّية من شَعْره على جبينه حَدَّ الحاجبَيْن .. يقف منشرحاً أمام كونتوار الجزّار، وبصره لا يفارق مخاخ الخراف البيضاء المُسَتَّفَة بعناية فوق البقدونس الأخضر اليانع وكأنها فارس يلبس الأبيض فوق هودج أخضر، يقع على ظهر حصان أبيض!

ناداه بعض الأطفال من وراء السور المقابل للجزّار بطريقة كورالية:

- واااااااااااااااالمخ ...

لم يأبه لذلك .. لقد اعتاد مثل هذا المنظر من بعض الكبار أيضاً .. أخذ ما اقتناه من الجزّار، وانسحب ...

التقى في آخر الشارع الابن حاملاً كيساً، يشبه كيسه .. تبادلا الابتسام قبل أن يتوقفا .. نظر كلّ واحد منهما إلى كيس الآخر .. سأله الابن قائلاً:

- زردة ديال لَمْخَاخْ .. يَاكْ؟

ضحك المخ مجيباً بالإيجاب ...

قال الابن:

- هل في حياتكَ امرأة؟

ارتبك المخ، لكنه أجاب:

- لا...

الابن: ولا رجل؟

المخ: لا ...

الابن: لأيّ منهما تميل؟

المخ: لا أحد ...

الابن: هل ضاجعتَ أتاناً؟

المخ: لا ...

الابن: والدجاج؟

المخ: لا ...

الابن: أنتَ "أعذر"؟

المخ: لا .. أحبّ المخ ...

انصرف ضاحكاً وهو يُمَرِّرُ أصابع يده اليسرى المفتوحة بين الخصلات المتدلّية من شَعْره على جبينه حَدَّ الحاجبَيْن ...

بعد أمتار معدودة، التفت كلّ واحد وراءه .. رفع المخ يده محيّياً الابن، وأكمل طريقه، ثمّ اختفى في المنعطف الموالي.

روى الجرّار للابن، قال المخ متحدّثاً:

- المخ .. يعجبني ويلائمني ...

-٣٢-

داهمتْه الحاجة البيولوجية. أحسّ بأن عضلات إسته ستتمزّق من قوّة الضغط. لا يمكن لآكل "الثّقَلْيَة" أن يُمَدِّدَ أجَلَ التّغوّط. انتبه الگرطيط إلى أن المرحاض العمومي الوحيد بالمدينة - لو صحّ أن نسمّيه كذلك، لأن اسم الحفرة يفيد أحسن لوصف ما هو كائن! - يوجد قرب محطّة المسافرين، وأن وصوله إلى البيت لن يكون إلا بعد ربع الساعة، لو أسرع المشي، وأن المقاهي أغلقت أبوابها منذ ساعَتَيْن تقريباً .. فكّر أن يعود إلى الحانة، لكنه انتبه إلى أنه في نقطة الوسط مقارنة مع المسافة التي تفصله عن منزله .. ازداد الضغط، فحاول التخفيف من وطأته عبر تسريب شيء من الأنفاس، وصورة تنفيس قارورة الغاز المضغوطة أكثر من اللازم لا تُفارق مخيّلته.

تسرّب سائل خفيف نتن مع الأنفاس. حاصره بسرعة. وقع بصره على جريدة مَطوية قرب باب أحد المحلات التجارية. انحنى بصعوبة كي يلتقطها. انزاح خلف إحدى السواري. احتفظ بالصفحات الأولى والأخيرة، ووضع الباقي بين رجلَيْه بعد أن جلس القرفصاء. صوت مُدوٍّ بين رجلَيْه وعلى صفحات الجريدة. بدأ يقرأ العناوين الكبرى في الصفحات التي احتفظ بها:

انفجارُ قاروةِ غازٍ يُودِي بحياةِ امرأةٍ

قَطَّعَ جزءاً كبيراً من الورق، نظّف مؤخّرته .. لَفَّ غائطه بإحكام، كما يلفّ الجزّار "الشْكَانْبَة" في كاغد الإسمنت .. ابتسم بعد أن غمر الغائط صورة وزراء الإعلام والثقافة والصّحّة والعدل والداخلية والخارجية والشباب والرياضة والأوقاف حين كانوا ينسّقون لاجتماع حزبي طارئ ...

قطع نصف المسافة المتبقّية إلى منزله وهو يحمل فضلاته كصخرة سيزيف باحثاً عن وعاء للقمامة إلا أنه لم يعثر على أيّ واحد منها.. اضطرّ إلى وضعه أمام محلّ تجاري، يعرف جيّداً مالكه ...

ابتعد مسافة محترمة عن المكان، فإذا بسؤال يتبادر إلى ذهنه: ماذا لو قذف أحد تلك "الكرة الورقية"؟

-٣٣-

بينما كان أحد شيوخ الگراطيط يُحَضِّر عدته اليومية من نبات الكِيف العجيب، مُمسِكاً بيده موسى حادّة لامعة، وقطعة خشبية محفورةَ الوسط بفعل الاستعمال المتكرّر أَسْفَلَ دوحةٍ كبيرة على مسافة مرتفعة، نسبياً، من الربوة المُطلّة على الطريق الرئيسة الرابطة بين مدينة الگراطيط والمدينة المجاورة من جهة الجنوب .. توقّفت سيّارة سوداء رباعية الدفع على قارعة الطريق المُزفَّتَة، تَرَجَّلَ منها رجل طويل، بدين، يتزيَّا ببذلة كلاسيكية داكنة، بقميص أبيض، وربطةِ عُنق سوداء، يحمل بيده اليمنى محفظة جِلْدية صغيرة، سار مسرعاً باتّجاه الدوحة. توقّف الشيخ عن تقطيع نبتته السِّحْرِيّة، جلس القرفصاء بعد أن كان طاويا ركبَتَيْه، ترك الموسى بين رجلَيْه، اعتقد أن شيئاً ما سيقع إلا أن مصاحبته للعديد من رجال السلطة المدمنين على نَفْثِ دخان الكِيفِ جعله مطمئنّ البال ظانّاً بأن القادم قد يكون مُجرّد زبون جديد .. فجأة، توقّف الرجل قرب شجيرة صغيرة، فتح حزام سرواله، أزال حَفَّاظاً صناعياً ناصع البياض، أظهر عجيرته كقطعة شحم معزولة في مؤخّرة ثور! أخذ من المحفظة منشفة ورقية، مَرَّرَهَا على عجيرته، أمسك حَفَّاظَةً جديدة، ثمّ أحكم شَدَّ أجزائها اللاصقة، رتّب قميصه داخل السروال، وأعاد ربط حزامه، وانصرف ...

تابع الشيخ ما حدث باهتمام بالغ، صعد الرجل سيّارته وانطلق، سار

الشيخ نحو الشجيرة، فحص محتوى الحَفَّاظِ الاصطناعي، ظنّ أن الرجل مريض أو في فترة نقاهة بعد إجراء عملية جراحية ما، ولكن غائط الرجل غريب للغاية، فقد لا يفاجئنا الأمر إن عثرنا داخل الفضلات البشرية على قشور بعض الخضر أو الفواكه المستعصية على الهضم، ولكن أن نعثر على كُوَيْرَاتٍ صغيرة من ورق السُّلُوفان بين الفضلات شيء يثير الاستغراب! تكتسح الغائط المحفوظ كما يهيمن الذباب الملوّن على الجثّة المتفسّخة! تومض وسط الفضلات المعتصرة بعد أن رشح ماؤها داخل خلايا الحَفَّاظ الاصطناعي وكأنها نجوم وسط العتمة!

-٣٤-

يتذكّر الابن ما حكاه له أحد شيوخ الگراطيط حين أخبره أن مدينتهم قد أصابها وباء خطير، ضرب جلّ أغنيائها الجدد، وهم كهول وشباب كدّسوا ثروات كبيرة بسرعة غريبة، يركبون السّيّارات الفارهة، يبنون العقارات هنا وهناك، يقتنون الضيعات الكبرى، يشترون محطّات الوقود، يترشّحون للانتخابات، أو يدعمون بعض المرشّحين، يذهبون إلى أوروبا، ويعودون بسرعة، يرتبطون ارتباطاً أبوياً بالفقهاء والسَّحَرَة، يُقدّمون الهدايا بسخاء لأبناء أولياء المدينة وصلحائها، أسخياء بشكل مريب!

ذات يوم، التحق الابن بالشيخ تحت الدوحة العظيمة راغباً في استنشاق الدخان العجيب بعد أن أغلقت حانة المدينة بابها الضّيّق بفعل حلول عيد المولد. وَجَدَهُ، كالعادة، يزيل الشوائب من نبتة الكِيفِ اليابسة الخضراء، يزيل الوريقة تلو الأخرى عن الغصن الصغير، يحكّ بين يَدَيْه ما جمعه من وريقات فوق قطعة الخشب، يُقَلِّبُ الحصادَ بالموسى وهو يُميل القطعة الخشبية نحو الأسفل، تسقط زَرِّيعَةُ الكِيفِ تاركة الوريقات المدعوكة على الخشبة. يبادر الشيخ بِقَطْع ما بقي بموساه كما يقطع الطّبّاخ الماهر القرْبزة والبقدنوس لإعداد طَبَقٍ خارق.

من حسنات مجالسة الشيخ تميُّزه بإتحاف مَنْ يطمئنّ إليهم بالحكايات النادرة، وبإجادته للدَّكَّة (شايّ خاصّ) ...

انتهى الشيخ من قَصِّ النبتة السِّحْرِيّة، وضع الحصيلة في قطعة بلاستيكية بيضاء، لأنها تحافظ على المسحوق من تسرُّب البرد إليه، وإبطال مفعوله. استلّ السَّبْسِي الخشبيّ المنقوش من قُبِّ جلبابه الأبيض النقيّ، ملأ الشَّقْفَ، وأشعله بعود الثِّقَاب، مَصَّ بعُمق، ناول الابن السَّبْسِي قبل أن ينفثَ الدخان. بمُجرّد ما استنشق الابن حصّته الأولى من الدخان، نطق الشيخ بأولى كلماته الممزوجة بالدخان المَزْفُور من فمه وأنفه:

امتلأت المدينة بالظواهر التي لم نكن نظنّ أننا سنراها. في الأسبوع الماضي، ذهبتُ لزيارة أحد الأصدقاء القدامى، ولجتُ المنزل دون أن أدقّ كما اعتدتُ ذلك، قصدتُ البيت الذي كنّا نجلس فيه لنتحدّث وندخّن، لم أعثرْ على رفيقي، ذهبتُ إلى البيت الآخر، علّه يكون رفقة ضيف!

لا تُصدِّق كم كانت مفاجأتي كبيرة؟! لم أُصدِّقما رأته عيناي. وضع ابنه البكْر على طاولة واطئة إناء صغيرا من العسل الخالص، ولِفَافَتَيْن من ورق السُّلُوفَان، وكيس بلاستيك يحوي قطعاً شبيهة بالشوكولاطة .. يضع القطعة على الطاولة، يقصُّها إلى مربّعات صغيرة، يلفّ كلّ قطعة في ورق السُّلُوفَان، يغمسها في العسل، ثمّ يَصْرِطُهَا(*) وهو يستمع إلى قراءات صوتية عجيبة ...

*) يشير فعل "صَرَطَ" في اللغة العربية المغربية إلى ابتلاع الشيء دون مضغه ...

-٣٥-.

يُنصِتُ الگرطيط وهو يَصْرِطُ ما يَصْرِطُ لأصوات غريبة، تتردّد وفق إيقاع كورالِيّ عجيب، ينبعث من مكبّر صوت كبير، يحتلّ مساحة مهمّة داخل القبّة التي يجلس بها .. تُرَدِّدُ الأصوات:

إِلَى جَاكْ غْرَابْ، عْطِيهْ قْرَابْ...

وِلَى جَاوْكْ جُوجْ اغْرُبَّة، عْطِيهَمْ جُوجْ اقْرُبَّة كَمَا عْطِيتِي لِلغْرَابْ قْرَابْ

ولى جاوك ثْلْثْ غْرُبَّة عْطِيهُمْ ثْلْثْ قْرُبَّة كما عطيتي لجوج غربة جوج قْرُبَّة كما عْطِيتِي للغراب قراب...

ولى جاوك رَبْعْ غْرُبَّة عطيهم ربع قربة كما عطيتي لثلث غربة ثلث قربة كما عطيتي لجوج غربة جوج قربة كما عطيتي للغراب قراب...

ولى جاوك تسع غربة عطيهم تسع قربة كما عطيتي لثمن غربة ثمن قربة كما عطيتي لسبع غربة سبع قربة كما عطيتي لست غربة ست قربة كما عطيتي لست غربة ست قربة كما عطيتي لخمس غربة خمس قربة كما عطيتي لِرَبْعْ غربة ربع قربة كما عطيتي لثلث غربة ثلث قربة كما عطيتي لجوج غربة جوج قربة كما عطيتي للغراب قراب...

-٣٦-

لم يرقْ للابن أن يستمرّ في الإطلالة على العالم من ثقب واحد وفق طقوس روتينية، لم يعد فيها أيّ مجال للذهاب بالمتعة إلى مداها الفاحش. أراد أن يُحيي صلة قديمة بعشيقته، جارتهم القديمة، الحديثة عهد بالزواج، بعد أن كان يأتيها خلسة من الأماكن كلّها إلا فرجها ...

استغلّ فرصة ذهاب زوجته عند أهلها رفقة ابنها أثناء عطلة الربيع المدرسية، وأتتْهُ إلى بيته ...

كانت عندما تضع شَفَتَيْها المكتنزَتَيْن، بشبق، على مكان ما من جسده، يصير جِلْده كجِلْد دجاجة بدون ريش!

كان مذاق الشراب في فمها كمذاق الحُرّيّة بالنسبة لسجين، طالت مدّة الإفراج عنه! حرمتْها ظروف الزواج من التدخين والشرب والقسارة(*) .. فانتقمتْ لنفسها في ليلة، قد لا تجود الظروف بمثيلاتها ...

يذكر الابن أن معاركهما الجنسية التي جاءت بعد ليلة سُكْر عريضة طويلة قد انتهت بما لم يكن يتصوّره أيّ منهما!

حين استيقظا بعد الظهر، اكتشفا أنهما غارقان في البول والغائط كالعَجَزَة المهملين! لا يعرف أيّ منهما مَنْ بال، ولا مَنْ تغوّط؟ هل هي نجاسة السُّكْر؟ أم خميرة اللّذّة؟!

---

*) تفيد لفظة "القسارة" في العامية المغربية كافة أشكال الانتشاء بمعية الأصدقاء.

لم يُدقّقا في الأمر. قاما بحملة نظافة، شملت مختلف أرجاء البيت والأواني، وجمع القوارير الخضراء المصطفّة ككتيبة غزاة تائهة! شَمَّسُوا الأغطية والأفرشة، هَوَّوا (من الهوى والهواء!) الغرف والمطبخ والحمّام ...

طبخت طبخاً لذيذاً ومتنوّعاً ...

أعدّ سلاطة مغربية مغربة ...

جعلت الملابس الداخلية والخارجية، وما طاله البول والغائط، في جوف آلة التصبين ...

أخرج القنّينات الفارغة، واقتنى أخرى مملوءة .. ابتاع شريطاً صوتياً، يحوي موسيقى الرقص الشرقي، وفي ذهنه رقصة سامية جمال في فيلم "علي بابا" ...

كان كلّ واحد منهما يُصرّ على تكرار تجربة البارحة دون أن يُصرّح للآخر .. يريدان ممارسة اللّذّة حدّ التّغوُّط!

يا له من جنس "خانز"! .. أليس ألذّ الجنس ما فاحتْ رائحته؟!

أَحَسَّ كلّ واحد منهما بألم في مؤخّرته! قد تكون المسألة مفهومة من جهة الأنثى، ولكن الأسباب مجهولة بالنسبة للابن!

قد يكون الفلفل الحارّ أو "الهريسة"، ربمّا، سبباً في ذلك الألم!

تكتَّم كلّ منهما على الألم .. ولجأ، خفية، إلى مرهم "الڤازلين" لتليين عضلات إسته المنقبضة.

-٣٧-

"اللِّي بْغَى يْوَنَّسْ رَاسُو.. يَتْفَكَّرْ لَيْلَة عَرْسُو" (من أراد أن يُؤنِسَ نفسه، فليتذكّر ليلة عرسه) ...

يتبادر إلى ذهنه هذا المثل الآن، وهو يتأمّل من خلف زجاج المقهى مرورَ موكبِ عرسٍ صاخبٍ في الشارع. شباب .. نساء .. رجال يرقصون بطُرُق، يكاد يصل بعضها إلى انفلات السيطرة على الجسد .. ترى الأجساد توشك على الانكسار .. شابّات يصعدنَ العربة التي يجرُّها بغل بأذنَيْن مرتخيَتَيْن حَدَّ الدّنو من السقوط دون أن يفهم ما يقع من حوله!

ماكياج فاقع .. ألبسة زاهية الألوان .. أبدانٌ تتفصّد عَرَقاً .. حمقى يرقصون، وآخرون يبحلقون مندهشين .. عيونٌ تُدَقِّقُ النظر في كلّ شيء .. لصوصٌ مُندسّون، يترصّدون أثاث العرس والمحتفلين .. قططٌ وكلابٌ تسير حذرة بمحاذاة المشاة، وكأنها تزفّ بعضها البعض!

يبتسم والجَمْع ينزاح من أمام ناظرَيْه ببطء مقصود. لا شيء يعلو فوق كوكبة العرس المتحرّكة. حركة السير منقطعة بالشارع الرئيس، فكلّما التقى الكَراطيط بشخص إلا وينجذبون إليه كما تنضمّ الأسماك إلى بعضها البعض أثناء الخطر. مدينةٌ تسير في الشارع. ينساق الناس وراء الموسيقى، إلى أن يبلغ العرس مستقرّه.

يصل الناس إلى منزل العريس .. يستمرّ الغناء والرقص، يتنامى إيقاع المجون والعربدة إلى الهزيع الأخير من الليل .. يلج الگرطيط بيت عروسه وفق طقوس خاصّة، فيخرج بسرعة وكأن حيواناً مفترساً يُباغته .. يتعالى صوت الخصام بين الأصهار .. يصيح العريس:

- ليست هذه مَنْ رأيتُ يوم الخطوبة ...

أجابه أخوها:

- نحن لا نُزوّج البنت الصغرى قبل الكبرى .. إن لم ترقكَ الأمور، فبادر بتطليقها ...

هدأ الناس مدّة قصيرة، ثمّ تعالت الزغاريد، وانطلق الگراطيط يردّدون:

هاهي جَابْتُو بَعْدَ.. لا اتْشَفِّيوْ فِيهَا لَعْدَا...

ها هو فُوقْ رَاسِي.. لا تْقُولُو فَارْمَاصِي...

وَاهْيَ لَخُّوتْ بْجُوجْ.. لا تْقُولُو دَمْ الفَرُّوجْ...

غرقت الساحة في الغبار المتطاير .. سرح الابن يتأمّل العابرين:

العابرون في الساحة ...

العابرون في الظلام والنور ...

العابرون في الممنوع ...

العابرون في الماء والنار والدخان والتراب والإسمنت ...

العابرون في الجلبة والمنفردون ...

العابرون فرادى ومثنى وجماعات ...

ساحة لا يعبرها ملاكم واحد ...

عابر للماء قصد الاختفاء ...

العابرون في جلودهم: عبور الوشم والحنّاء ...

العابرون أمام وخلف الحديد .. البصّاصون من خلف الأنسجة .. وسياجات البصر ...

العابرون في صخب الموسيقى .. العابرون في موسيقى الصمت ...

العابر المتأمّل .. العابر العازف ...

العابرون وسط الأضواء .. وعشّاق العتمات ...

عابرون يجمعهم إطار الصورة، ولا يجمعهم هدف محدّد ...

العابرون في شتات ...

عجلات تعبر الإسفلت .. وأخرى تعبر مع العابرين .. عبور جامد، وآخر متحرّك: الحركة مختلفة، والعابر لا يسأل العابر ...

حيوان عابر يقوده إنسان عابر ...

هل يتساوى العبور؟

-٣٨-

الجوّ مكفهرّ. ضباب كثيف داكن اللون. ظلام شديد لا يكسر حلكته إلا ضوء البرق الذي يجعل الناس يتأهّبون لاستقبال سلسلة من دَوِيِّ الرعد التي تشبه المفرقعات المخترقة لجدار الصوت .. كلّ شيء يُؤذِن بأن واقعة رهيبة على وشك الوقوع ...

يسارع الابن الخطوَ لجَلْب زوجته وابنه من محطّة الطاكسيات الكبرى بمدينة الگراطيط؛ إذ من المفروض أن يدخل الطفلُ المدرسةَ في اليوم الموالي ...

ضوء مصباح خفيف ينطفئ، ثمّ يشتعل ...

قطٌّ أسود يموءُ في آخر الزقاق ...

ضباب متسارع يفسح المجال لمضاعفة قوّة ضوء البرق ...

مراكش: ٢٠ فبراير ٢٠١٧.

فهرس المحتويات

الجزء الأوّل ٧

الجزء الثاني ٥١

الجزء الثالث ١٠١

هناك أشخاص، كُثُرٌ، في هذه البقعة من الكون، يصعب تصنيف سلوكهم وطبائعهم .. ما إن تطمئنّ لمدنيّتهم حتّى ينقلبون .. ما إن تنلْ منكَ طيبوبة بداوتهم حتّى يتراجعون .. لا هم بالمؤمنين، ولا هم بالكفّار .. ما هم بالمسلمين، ولا بالبوذيين، ولا بالمسيحيّيْن، ولا باليهود، ولا بالهندوس .. لا هم علمانيون، ولا هم مُلحدون، ولا هم لادينيون .. لا هم فلاسفة ولا أبالسة .. لا هم يستحمّون ولا هم يُغيِّرون ملابسهم .. ينامون أينما باغتهم العياء. يتبوّلون ويتغوّطون قرب منامهم. يتبوّلون مشاة. يقضون حاجتهم وينهضون. يَحُكُّونَ مؤخّراتهم بأصابعهم، ويأكلون!

يدسُّون أشياءهم حين تنتفخ في ثقب أيّ كائن حيّ متاح!

يلبسون ثياباً خشنة گَرْطِيطَة. ينكشف سواد عوراتهم حين ينكفئون. مالهم كثير. صراعهم دائم. جوعى أبداً. يُغيّرون مهنهم بسرعة فائقة. يشتغلون في كلّ شيء. يبيعون مسحوق الغائط اليابس، لو كان رائجاً، ولا يتردّدون في شربه، لو نصحوهم به تجنّباً للموت!

فصيلة عجيبة .. فصيلة الگَرَاطِيطِ هاته!